مقدمات القصائد في شعر المتنبي

أنماطها وملامحها الفنية

بقلم

أ. د. أحمد عبد الغفار عبيد

أستاذ الأدب والنقد

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالإسكندرية

استقرت للقصيدة في الشعر العربي القديم تقاليد توارثها الشعراء، وتداولها الرواة، حتى غدت كأنها لوازم لا فكاك عنها، ولا مناص من مجاراتها، وهذه التقاليد تتمثل في الأعم الأغلب في الحرص على مقدمات غزلية أو طللية، وبالأخص في القصائد الحفلية، أو حسب تعبير الجاحظ " قصائد السماطين "، وهناك نماذج – وإن جاءت محدودة – تخالف هذا النهج، غير أن أشعر قصائد القدامى ومطولاتهم الذائعة كالمعلقات وأشباهها التزمت هذا التقليد، وسارت في ذلك النهج.

وقد استلفتت تلك الافتتاحيات أنظار الرواة ونقدة الشعر قديما فأولوها عنايتهم، وحاول بعضهم التماس العلة لمجيئها على تلك الشاكلة، بل حرص المتأخرون من الشعراء في العصور التالية على التزام تلك التقاليد، واستلهام أجواء القصيدة العربية الموروثة، حتى غدت تلك المقدمات برسومها الطللية والغزلية، ومكوناتها الوجدانية، وأطيافها الذاتية منفذاً مهما للشاعر يودعها خواطره ورؤاه، ويبثها لواعجه وهواجسه، وآلامه وآماله، ويتفنن من خلالها في التعبير عن عالم الخاص، وكيانه الذاتي، حتى إذا أفرغ تلك المشاعر المستكنة، ونفَّث عن كوامن شعوره الخاص دلف إلى غرضه الرئيس، بعد أن يجذب المتلقي إلى التواصل مع ما يقول، واستشعار الخواطر التي يعبر عنها، والاحساسات التي تشي بها تنغيماته.

ولعل ما طرحه ابن قتيبة في مقدمة الشعر والشعراء كان أول محاولة لتفسير بناء القصيدة التقليدية، ويبدو من كلامه أن هذا التفسير أو التعليل كان رأياً ذائعاً بدليل أن ابن قتيبة زعم أنه سمعه من بعض أهل الأدب. يقول : " إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بالديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العَمَد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد، وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ؛ ليميل نحوه القلوب، ويصرفإليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب، وضارباً فيه بسهم...، فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقَّب بإيجاب الحقوق،

فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر وسُرى الليل، وحرَّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح، وفضَّله على الأشباه، وصغَّر في قدره الجزيل " [١]

ثم يستطرد ابن قتيبة فيأخذ من هذه التقاليد مبدأً يطالب الشعراء بالتزامه، والسير على نهجه. يقول : " فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدَّل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظماء إلى المزيد "[٢]

وقد حظيت مقدمات القصائد في الشعر العربي بعد ذلك بعناية الباحثين والنقاد فأولوها اهتمامهم، وأداروا حولها بحوثهم، لعل من أشهرها ما أسهم به الدكتور حسين عطوان [٣]، وكذا الدكتور محمد غنيمي هلال [٤] وغيرهما.

ويعنيني في هذه الدراسة الموجزة أن أستعرض ألوان المقدمات في شعر أبي الطيب المتنبي، وأرى أن دراسة مقدمة القصيدة أو افتتاحيتها له أهمية فنية كبرى ؛ لأن الشعراء الكبار وعلى الأخص الذائعو الشهرة، وشعراء البلاط كانوا يدبجون قصائدهم ويتوجهون بها للممدوحين، وكثيراً ما تكون معانيها ومواقفها مكرورة، ولذا كان الشاعر يبدع ويتفنن في مقدمة القصيدة لأنها – في تقديري – تمثل المساحة الخاصة بوجدان الشاعر وإحساساته الذاتية، فكان يكثف فيها التعبير عن رؤيته الخاصة، وعالمه الأثير، وكان أبو الطيب المتنبي من أشهر من برعوا في ذلك، وتفننوا فيه بصورة ملفتة للنظر.

لقد كان من أهم ما يميز الأداء الفني في شعر أبي الطيب المتنبي اختياراته للمطالع والافتتاحيات، وجَعْلُها سمة مميزة لكل قصيدة، توحي بموضوعها وتطرح فكرته في ألمعية، وتشي بما يعتمل في حنايا الشاعر بشأن تلك الخواطر والاحساسات التي حفزته على التعبير، وحرَّكت في نفسه هواتف الشعر، وأهابت بشاعريته أن تُفْصِحَ وتُبِين.

ولا مراء في أن مطلع القصيدة وافتتاحيتها هو أول ما يطرق سمع المتلقي ومن ثم تتولد لديه انطباعات أولية إما بالإعجاب والإكبار، وإما بالنفور والإعراض، ولقد برع

أبو الطيب في جعل متلقي شعره يتعاطف مع ما يقول، وتشده تلك الافتتاحيات التي حشد لها شاعرنا كل إمكاناته الفنية، ولَوَّنها تلوينا عجيبا، فأتت على نحو بديع، وبصور شتى ؛ فلم يحصر أبو الطيب نفسه في إطار أوحد لا يعدوه بل نوَّع وتفنن، فجعل بعض تلك المطالع والافتتاحيات غزلية وبعضها الآخر حماسية، وبعضها تأملية حكمية، وبعضها تمهيد مباشر لموضوع القصيدة وفكرتها... إلى غير ذلك من الافتتاحيات والمطالع على نحو ما سنبين.

وحتى لا يتشعب بنا القول ألخص للقاريء في هذا المقام أهم أنماط الافتتاحيات والمطالع في شعر أبي الطيب، وأعني بالمطلع أول بيت في القصيدة، أما الافتتاحية (أو المقدمة) فهي مجموعة الأبيات التي يبدأ بها الشاعر قصيدته ممهدا لموضوعها، وتكون في غالب الأمر مرتبطة ببعضها البعض فكراً ومعنى، وهي تشمل المطلع بداهة.

ونعرض في هذه الدراسة أبرز أنماطها :

مقدمات التأمل واستنباط العبرة :

□□□□□وهو نمط من المقدمات عميق من حيث دلالته المضمونية، بيد أنه واضح من حيث عبارته وأسلوبه، ويكثر هذا النمط في شعر أبي الطيب، بحسبان شاعرنا من أكثر الشعراء القدامي عناية بتأمل أحداث الحياة، وأحوال الناس، وطبائعهم وعلاقاتهم...، وهذه النزعة تدفع صاحبها إلى استخلاص العبرة، واستنتاج الدلالة، واستلهام الرؤية الصائبة، فإذا ما كنا نتحدث عن نوعية من الشعر تتعلق بوجدان الشاعر ومعاناته، وتقلبات حياته فلا غرابة في أن تكون تأملاته فيما يخص هذا الجانب أو يؤثر فيه على قدر كبير من العمق والإمتاع. وأكثر قصائد هذا النمط تنحو منحى العبرة الممزوجة بالبث والشكوى، وبعضها يجنح إلى التعبير عن قوة التحمل والتصبُّر للشدائد، والنزوع للمغالبة.

ومن النوع الأول الأكثر شيوعاً وهو ما ينحو منحى الشكوى، وتصوير المعاناة – المطالع التالية :

= أودُّ من الأيام ما لا تـــــــــودُّهُ وأشكو إليها بيننا وهي جندهُ

وهو مطلع إحدى القصائد المدحية مما مدح به أبو الطيب كافورا وهي موحية ذات دلالة على المعاناة والحرمان، وصعوبة تحقق الآمال بل استحالتها ويتكامل المطلع مع باقي الافتتاحية في توافق منطقي وتصويري بديع إذ يقول(٥).

أود من الأيام ما لا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده
يباعدن حبًّا يجتمعن ووصله فكيف بحبٍّ يجتمعن وصده
أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه فما طلبي منها حبيبا ترده
وأسرع مفعول فعلت تغيُّراً تكلف شيء في طباعك ضده

نحن إذاً أمام مطلع غزلي لقصيدة مدحية أو حفلية، وأكثر غزل تلك المطالع أو الافتتاحيات غزل صناعي، يتفنن فيه الشاعر متلطفا به لموضوعه، وتكون له دلالته في الإيحاء بالعاطفة المسيطرة على الشاعر، والخواطر المتماوجة في حناياه.

بدأ أبو الطيب معلناً أنه كان يرجو دوام الوصال والقرب ممن يهوى ولكن الأيام لا تريد ذلك، وهو يشكو لها البين في حين أنها سببه وباعثه، فهي تباعد دائما بين المتحابين المتواصلين فكيف يطلب منها أن ترد عليه حبيبه الذي هجره وفارقه ؟! إن خُلُقَ الدنيا وطبعها يأبيان عليها أن تُبْقِي على اقتراب حبيبين فبأي منطق يطلب منها شاعرنا أن ترد عليه من فارق وابتعد ؟! وإذا كان هذا هو طبعها وعادتها وديدنها فلا غرابة إن بادرت فحرمت الحبيب من حبيبه الذي واصله في غفلة منها ؛ إذ يعاودها خلقها اللئيم وطبعها الخسيس، الذي إن تكلفت غيره وحاولت إظهار سواه خانتها قواها، وغلبها ما جُبِلَتْ عليه ودرجتْ...، وبعد استطرادة غزلية رقيقة في أربعة أبيات يعاود شاعرنا حديثه

الذاتي المعبر، فيبدو حكيما مستخلصا العبرة والدلالة التي استفادها من تجربته العميقة، ومِراسه بأحداث الحياة وصروفها فيقول : إن أكثر الناس معاناةً ونصبا من كثرت همومه، ولم يبلغ من دنياه ما يريد، وبعد أن يقرر تلك الحقيقة ينصح من له همة سامقة، وتَوْقٌ لتحقيق الأمجاد ألا يضيع ماله في وجوه السرف الباطل ؛ إذ المجد محتاج منه إلى تلك الصيانة، فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله، ولا مال لمن قل مجده، فهما صنوان متآخيان، ورفيقان متلازمان. ثم يبن أن الناس ليسوا سواء في مطامحهم

ورغباتهم، فمنهم من يقنع بالقليل، بل منهم من يقنع بأن يكون مركوبه رجليه، وثوبه جِلْدَه !! ويعلن أبو الطيب في صراحة ووضوح أنه ليس من هؤلاء الخاملين الذين يقنعون بالكفاف ؛ لأنه يحمل بين جنبيه قلبا لا يعرف للسمو غاية، ولا للطموح مدى يُوقف عنده وهو لا يعلم لذلك التكوين الفطري الذي نشأ عليه تفسيرا، فنفسه الطموح المتمردة لا ترتاح للترف والتنعم، وتُفضِّل على تلك الحياة الوادعة حياة الخطار والمصاولة، فتختار أن تكسوها الدروع الخشنة المضنية بدلا من الثياب الرقيقة الناعمة...، إن ذلك القلب وتلك النفس تكلفان صاحبهما الرهق، وتقتضيانه السفر في لفح الهجير ولهيب الصحراء، معرضا حياته كلها للخطر، ومُجشِّماً مَنْ معه العناء، فلا زاد له ولا لإبله إلا ما يرهقها البحث عنه والوقوف عليه بعد المشقة والعنت !!

أودُّ مِنَ الأيَّام ما لا تَوَدُّه وأشكو إليها بيننا وهي جنده (٦)
يباعدن حِبًّا يجتمعن ووصله فكيف بحِبٍّ يجتمعْن وصدُّه
أبَى خُلقُ الدنيا حبيبا تُديمه فما طلبي منها حبيبا تردُّه
وأسرعُ مفعولٍ فعلتَ تغيُّراً تكلف شيء في طباعك ضِدُّه
وأتعَبُ خلق الله من زاد هَمُّهُ
وقَصَّر عما تشتهي النفس وُجْدُه
فلا ينحلل في المجد مالك كله فينحلَّ مجدٌ كان بالمال عقده
ودبِّره تدبير الذي المجْدُ كَفُّهُ
إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجدَ في الدنيا لمن قلَّ مالُه
ولا مال في الدنيا لمن قَلَّ مجده
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومَركُوبُه رِجْلاهُ والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبيَّ ما له مدًى ينتهي بي في مُراد أحُدُّه
يرى جسمَهُ يُكْسَى شُفُوفاً تَرُبُّه
فيَخْتار أن يكسى دروعاً تهده (٧)
يكلفني التهجير في كل مهمه علِيقي مراعيه وزادي رُبْدُه (٨)

عيدٌ بأية حال عدتَ يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد (٩)

وهو مطلع قصيدة قالها أبو الطيب قبل رحيله عن مصر يهجو بها كافوراً، ويكشف عن ضيقه بمقامه، ومقته لجوار هذا الدعيِّ اللئيم، وما أضاعه من عمره وفنه في استدرار جوده، ومحاولة نيل منزلة لديه تعوض ما افتقده برحيله عن سيف الدولة، فلم يجن من مسعاه إلا الندم والحرمان !!.

وجو القصيدة مفعم بالقلق والضيق، وقد قالها أبو الطيب يوم عرفة أي قبل رحيله من مصر متخفيا بيوم واحد، وهو في هذا المطلع يخاطب تلك المناسبة الحبيبة التي تفد على المسلمين بالبشرى والسرور – مناسبة عيد الأضحى – ولكن شاعرنا في كرب وبلاء، ومن ثم يخاطب تلك المناسبة في أسى واضطراب : أيها العيد ما الذي تحمله لي من بشائر الرضا والأمل ؟ إنك تُهِلُّ عليَّ وأنا في محنة لا أدري كيف يكون خلاصي منها، هل سيكون لي خلاص ونجاة وسرور أم سيبقى حالي كما أَلِفْتُ يأس وشقاء وهوان ؟!. والمطلع متوائم مع الافتتاحية ومع الجو العام للقصيدة، والمقدمة في مجملها نفثة مكروبٍ، وزفرة ملتاعٍ، وتعبيرٌ عن همٍّ دفين، وضيق لا احتمال له ولا صبر عليه، وهي تشي بما كان أبو الطيب على قناعة به آنذاك من أنه لا مُقام له في مصر، ولا أمل في أن تتحقق له في ربوعها آماله. يسترجع أبو الطيب في مطلع هذه القصيدة ذكرياته، ويستعيد ما كان في أيامه الخوالي من مكاسب وأرزاء، فيجد نفسه قد خاب سعيه وتبددت مطامحه، وهذا العيد الذي يوشك أن يعاوده لا يحمل له بُشريات فرح وحبور، بل يضاعف من تنغيصه وتنكيده؛ فالأحبة يزدادون بعدا، وتحول المسافات الشاسعة بينه وبينهم، وهو لذلك يتمنى أن لو كان ذلك العيد الذي بعث عليه الهموم وأثار ذكريات الأسى ما عاد، ولا أهَلَّتْ لياليه، وليته كان قاصيا بعيدا تفصله عنه بيد بعدها بيد !! ثم يذكر شاعرنا أنه ما ابتعد عن أحبته إلا طالبا للمجد، توَّاقا إلى العلا، ولولا ذلك ما لازمته السيوف وعدة القتال، ولكان مُحتضِناً بدلا منها الغيد الحسان، ثم يقول : إن ضياع الآمال، وتبدد المطامح لم تُبق في نفسي موضعا للسلوى والتعزي، وكل ما في الحياة من متع ولذائذ هي عندي مبعث اشمئزاز وتقزز، وإني لأعجب من ساقيَّ ؛ لأن خمرهما لا تؤثِّر فيَّ، ولا تسرِّي عني وكأنهما يجرعاني الهموم والتسهيد، لقد تحجَّرتُ، وتبلد شعوري، فلم أعد أطربُ لما يُطرِب، ولا أتأثر بما من شأنه أن يُؤثر ويُنسِي، وهذه متع الحياة وأطايبها موجودة متاحة ولكن ما أحبه مايزال غائبا مفقوداً، ومن أعجب العجب وأغرب الغريب أن الذين يحيطون بي ويرون ما أنا فيه يحسدونني، وينفسون عليَّ

رخاء العيش ووفرة المال، وذيوع الصيت، وما أقسى أن تكون محسودا على ما تشعر في قرارة نفسك أنه موضع شكواك، ومصدر ضيقك، وما ترجو منه الخلاص، وتحتال لتبعده عنك !!، ثم يقول ها أنا ذا مشهور بالثراء، موسوم بالحظوة عند أرباب السلطان ولكنه في الحقيقة ثراء لا أساس له ؛ لأن أكثره قائم على وعودٍ لم تتحقق، ومِطَال لم أجن منه سوى المعاناة، وكأنه السراب الذي لا حقيقة له، ولا جدوى من الجري وراءه.

عِيدٌ بأَيَّةِ حال عُدتَ يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد

أمَّا الأحبة فالبيداء دونَهم فلَيْتَ دُونك بيداً دونها بيد

لولا العُلَى لم تجُب بي ما أجوب بها

وجناءُ حَرفٌ ولا جرداء قيدود [10]

وكان أطيب من سيفي مضاجعة

أشباه رونقه الغِيدُ الأماليدُ [11]

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيْئًا تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ ولا جِيدُ

يا ساقِيَيَّ أخمرٌ في كئوسِكُما

أَمْ في كئوسكُما هَمٌّ وتَسهيدُ

أصخْرةٌ أنا ما لي لا تُغَيِّرني

هذِي المُدامُ ولا هذِي الأغاريدُ ؟!

إذا أرِدْتُ كُمَيْتَ الخمر صافية

وجَدْتُها وحبيب النَّفْس مفْقود

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها أني بما أنا باك منه محسود

أمسيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خازنا ويداً

أنا الغَنِيُّ وأموالي المواعيد [12]

□□□□□إنِّي نزلْتُ بكذابين ضيفهم
عَنِ القِرى وعن التَّرحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجُودُهُمُ
مِنَ اللسان فلا كانوا ولا الجود !!

* * *

= نُعدُّ المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال(١٣)

وهو مطلع مرثيةُ أبي الطيب والدَهَ سيف الدولة، وفيه بطبيعة السياق الحكمة واستخلاص العبرة، وعمق المعنى الذي أدركه فكر هذا الشاعر العظيم ذو العقل الكبير، والرؤية الحكيمة، والنظرة المتأملة العميقة، التي تنتهي بصاحبها إلى أن يرى في صراع الناس في الدنيا وتكالبهم على حطامها عبثاً لا مبرر له، وتسرعاً محموماً، غافلين عن حقيقتها الأبدية، ونهايتها المتيقنة : الموت الذي يأتي لينهي الحياة، ويحول بين المتعادين والمتباغضين، ويحسم الصراع الذي ربما فشلت في حسمه الدسائس والمكائد والتدابير، وفنون النزال والقتال !!

ويتناغم المطلع في هذه القصيدة مع سائر الافتتاحية إذ يستقصي فيها أبو الطيب ذلك المعنى العجيب الذي حرره عقله النابه، وذكاؤه الوقَّاد إذ يقول:

نُعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقربات وما ينجين من خبب الليالي
ومن لم يعشق الدنيا قديما ولكن لا سبيل إلى الوصال
نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

لقد كان أبو الطيب موفقا غاية التوفيق في التمهيد لمرثيته بتلك الافتتاحية التأملية الحكيمة، وذلك المعنى البكر، فبعد المطلع الذي ألمحنا لدلالته يسوق أبو الطيب ما يكمل معناه ويقرره في الأذهان، فبعد أن قرر في المطلع أننا – بني البشر – نعد أدوات القتال من السيوف والرماح والدروع ليقتل بعضنا بعضا وتأتي المنايا فتقتلنا دون أن يكون بمقدورنا حيالها قتالا أو دفاعا، ونقتني الخيول ونربطها قريبا من متناول أيدينا، وما تستطيع هاتيك الجياد السوابق أن تنجو بنا من أحداث الدهر التي تسرع نحونا وتتخطفنا، ومَنْ مِنَ البشر في قديم الزمان لم يحبَّ دوام الحياة واتصالها وعدم مفارقة الدنيا ؟ ولكن لا سبيل إلى تحقق تلك الأمنية المستحيلة، إن العاقل لو تأمل وأمعن النظر

لأدرك أن ما يناله من محبوبه لا يعدو أن يكون متاعا عابراً، وكأنه كان يرى حلما ما لبث أن استيقظ فزايله ما كان يتمثل له من خيال !!.

ألا لا أُرِي الأحداث حمداً ولا ذمًّا

فما بطشها جهلا ولا كفُّها حلماً (١٤)

وهو مطلع مرثية أبي الطيب جَدَّتَهُ، وهي من روائع شعره عامة وشعره الذاتي على جهة الخصوص، وقد بدأها بداية تلائم الجو العام للقصيدة ؛ إذ كان معنيا فيها بإظهار تجلده للشدائد حتى لا يشمت به الأعداء، كما ملأ القصيدة بالفخر المدوي، ومن ثم جاء المطلع تأملا عاقلا حكيما، فأكثر الناس عندما ينزل بهم مثل ذلك المصاب يجزعون ويتسخطون، ويُنْحُون باللائمة على الأيام والليالي وصروف الدهر...، وكثيرا ما صنع شاعرنا نفسه هذا الصنيع في مواقف أخرى، أما هاهنا فهو يتوجه توجها مغايراً، إذ يؤكد أنه لا يرضى عن الأيام أو يحمدها إن نزل به فيها خير، ولا يذمها إن أصابه فيها شر ؛ لأن مرجع هذا وذاك لله ﷻ، وإنما ينسب الناس إليها ذلك على سبيل المجاز والتوسع في القول، ثم أكمل شاعرنا العظيم معناه العاقل الحكيم بقوله :

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى

يعود كما أبدى ويكري كما أرمى

□□□فكما تحدث الزيادة يعود الأمر إلى النقصان والتلاشي، وكما يكون التمام يعتري النقصان والافتقاد، فلا دخل للأيام حتى تحمد أو تُذَمّ. وبعد مطلع حكميٍّ يلائم جوَّ الحزن والرثاء، وفيه يتصبَّر أبو الطيب، ويُبين أنه قد عرف صروف الليالي وأحداثها قبل ذلك المصاب، فلما نزل به لم يكن غريبا عليه أو مفاجئاً له، ثم يتحسر على أنه لم يحقق لتلك الجدة ما كانت تتمنى، وأنه رحل وتغَرَّب باحثا عن مكانة هو بها جدير، أو حظ من الحياة يليق بمثله، ولكنه لم يحقق ما أراد، ولم يصخ سمعا لتوسلات تلك الجدة في عهده الأول عندما رغبت إليه وألحَّت في الرجاء أن يبقى إلى جوارها، ويعيشا سويا على القليل والكفاف !!.

ثم يبين أن من حق تلك الراحلة أن تتيه وتفخر، وأنها لو لم تكن من أرومة باذخة، ونسب ماجد لكان عليها أن تعتز بأمومتها له، وإنجابها لمثله، وينسيه هذا الاستعلاء نفسه وغرضه فيفيض في الفخر بنفسه، ويذكر أنه تغرَّب أبيًّا عزيزاً، حيث لم

يذلَّ لمخلوق، ولم يعرف مهيمنا عليه سوى خالقه تعالى وتقدس، وهو في رحلة حياته اختار خوض الصعاب، والبحث عن المكرمات، وقد عانى بسبب ذلك في أسفاره وانتقالاته، وكان مسلكه موضع تساؤل وتوجس

ممن يحيطون به، ومطلوبه وآماله أعظم من أن يصرح بها، وأخطر من أن تذاع، أو تقنع أحدا ممن لا يعرفون قدره، ولا يقدِّرون غناءه. ثم يستطرد في ذلك المعنى فيبين أن المباديء التي يدعو إليها، والأخلاق التي يحرص على أن يَصدُر الناسُ جميعا عنها أمورٌ إصلاحية، تتمثل في ألاَّ يُمَكَّنَ من السيادة والرياسة إلا من يستأهل تلك الرُّتب، من أهل المروءة، وذوي الفضل والجدارة وما أقلهم وأندرهم، وما أكثر من يستحقون ممن رآهم من أهل عصره أن تُستأصَل شأفتهم !! وكأنَّ هؤلاء يعرفون من أمر المتنبي ذلك العداء، ويدركون أن حتفهم ويُتْمَ أبنائهم سيكون على يدي ذلك الثائر الرافض لكل نقيصة، الزاري على كل صغار.

ثم يذكر أبو الطيب في لهجة عاقلة حكيمة، ورؤية فاقهة مستبصرة أن ما يتمناه ويرجو تحققه بعيدُ المنال، بل هو أقرب إلى المستحيل، فأنَّى له أن يجمع بين الفهم وعلوُّ الشأن ؟! إنه من أجل ذلك الإحساس لا يهدأ ولا يستكين، بل يحاول أن يبلغ بحدِّ السيف وأسنة الرماح ما لم يتهيأ له على نحو سلميٍّ، وهو لن يتوانى في ذلك لأنه لا يعرف أن يلوذ بالسكون مع اهتضام حقه ؛ لأنه نشأ في قوم يأبون الضيم، وكأن هممهم العالية، ونفوسهم الطامحة لا تريد أن تسكن بين العظم واللحم، فيختارون لها الخطار والمغامرة، فإما أن يتحقق لها المجد أو تقضي حرةً أبية !!.

ثم يتحدى الدنيا كلها قائلا لها : هذه طباعي ومُثُلِي، وتلك مآربي وآمالي فاذهبي عنِّي إن شئت فلن تجدي منِّي سوى التحدي !!. ويتحول لنفسه طالبا إليها أن تزيد في عنادها للدنيا، ومغالبتها وتحديها ثم ينهي قصيدته مغالبا الصعاب متشددا أمام النوائب معلنا أن ساعةً من العمر لا تكون نفسه فيها عزيزة موفورة لا قيمة لها، ثم يقول : إن روحي لو مالت إلى قبول الظلم، أو رضيت الذل فلا كانت، ولا بقيت مصاحبة لجسمي، ولا مبقية على حياتي !!

ألا لا أُري الأحداث حمداً ولا ذمَّا

فما بطْشُها جهْلا ولا كفُّها حلما
عرفْتُ الليالي قبل ما صنعت بنا
فلَمَّا دَهَتْنِي لم تَزِدْني بها علما
طلبْتُ لها حظاً ففاتتْ وفاتني
وقد رضيتْ بي لو رضيتُ بها قَسْما
ولو لمْ تكُونِي بِنْتَ أكرم والدٍ
لكان أباك الضَّخْم كَوْنُكِ لي أُمَّا
لئن لَذَّ يومُ الشَّامتين بموتها
لقدْ ولدَتْ مِنِّي لآنافهم رغْما
تغرَّب لا مستعظما غير نفسه
ولا قابِلاً إلا لخالقه حُكْماً
ولا سالكاً إلا فُؤاد عجاجةٍ
ولا واجداً إلا لِمكْرُمةٍ طعما
يقولون لي ما أنت ؟ في كل بلدة
وما تبتغي؟ما أبتغي جَلَّ أنْ يُسمَى
كأنَّ بنِيهِم عالمون بأنَّني
جلوبٌ إليهم من معادنه اليُتْما
وما الجمع بين الماء والنار في يدي
بأصعب من أن أجمع الجَدَّ والفهما
ولكنني مستنصرٌ بذبابه
ومرتكبٌ في كل حال به الغَشْما [١٥]
وإنِّي لمن قومٍ كأنَّ نُفوسهم
بها أَنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما
كتذا أنا يا دنيا إذا شِئْتِ فاذهبي
ويا نفس زيدي في كرائهها قُدْما [١٦]
□□□□□ فلا عبرتْ بي ساعة لا تُعِزُّني
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□ ولا صَـــــحبتْني
مهجةٌ تقبل الظلما !!

= أفاضل الناس أغراض لذا الزمن

يخلو من الهمِّ أخلاهم من الفطن [١٧]

وهو مطلع قصيدة مدح بها أبو الطيب القاضي الأنطاكي وهو رجل كان موضع تقدير أبي الطيب واحترامه ومهابته ؛ لذا اتسمت مدائحه فيه بتوخي دقة المعنى وعمقه، وروعة التعبير والتصوير، وحسن التأتي. والمطلع كما يتراءى يعبر عن حقيقة يعانيها المخلصون وأهل الفضل، إذ يُلاحَظ أنهم مهضومون محرومون ؛ لأن الانتهازيين يسبقونهم إلى متع الحياة وطيباتها، أما هؤلاء فتحول دماثة خلقهم وترفعهم عن طلب ما هم به جديرون، وبنيله حريون بينهم وبين أن ينالوا حظًّا ملائما لما ينبغي أن يكونوا عليه !! إنها حقيقة مؤلمة، وواقع قاس، وكأن الزمان يقف من هؤلاء الفضلاء موقف العداء، فيجعل أبرعهم فطنة وذكاء هو أكثرهم شقاءً وحرماناً، فالمعادلة بالنسبة لهم معكوسة، كلما زاد أحدهم فضلا وعقلا زاده الدهر همًّا وعناءً، والعكس في واقع الحال صحيح !!. ثم استطرد أبو الطيب بعد ذلك في بقية أبيات الافتتاحية مشيراً إلى أن أفاضل الناس كأنهم مستهدفون من قبل عاديات الزمان، يرميهم بنوائبه، ويخصهم بالمحن، فلا يزالون في معاناة، وكأنه قُدِّر عليهم ألا يخلو من الهموم إلا من سُلب الفطنة، وحُرم الذكاء، ثم يشكو تغيُّر الدهر وفساد الجيل بأكمله، وأنه كلما نظر حوله وجد أنماطاً من هؤلاء الذين لا فرق بينهم وبين البهائم، وأنه لا يرحل عن بلد إلا وهو مضطغن على أهله غير مرتاحٍ لأحد منهم، حتى ملوكهم لا خير فيهم، ولا غناء عندهم، وقد عاشر كثيرين منهم فوجدهم أحرى أن تقطع رؤوسهم، وهو من فرط كراهيته لهم يكاد يعذرهم ويرثي لحالهم ؛ لجهلهم بما ينبغي أن يكون مسلكاً قويماً، فقد فقدوا العقول التي هي الأساس في الأدب والسلوك، فلا جدوى من محاولة إصلاحهم، وأنه ربما عاشر قوماً صعاليك، يجلسون لفقرهم على التراب، عارين من الثياب، كاسين من الأقذار يحيون على السرق والفتك، ولا طعام لهم إلا ما يصيبون من الغارات، وربما اضطروا إلى أكل بيض الضباب من فرط الجوع والحرمان...، يقول : وقد أخالط أمثال هؤلاء مضطراً دون أن أُطلِعهم على حقيقة أمري، ورُبَّما حدسوا بشخصي، ولكني لا أصارحهم بشيءٍ خوفاً من غدرهم، وقد أُجاريهم في مسلكهم وأصنع مثل صنيعهم حتى يحسبوني على شاكلتهم، ولا يرتابوا في أمري.

ولقد ساعدني صبري وعلوُّ همتي على تحمُّل المواقف الصعبة وشظف العيش دون شكوى أو تململ ارتقابا لتحقيق الآمال، وبلوغ المراد. ثم يبين أبو الطيب بعد ذلك أن كثيراً من أرباب السياسة وبُعْد النظر يساعدهم ذكاؤهم وفطنتهم على التخلص من المواقف الصعبة، وأن الجبناء الحمقى قد يدفعون حياتهم ثمناً لجهلهم وغفلتهم ثم يؤكد أن الذليل لا ينبغي له أن يسعد بجمال زيه وسعة ذات يده ؛ فحاله عندئذٍ كحال الميت الذي لا ينفعه جودة كفنه !! ويتعجب من إخفاقه فيما يؤمل وكأن الأقدار تخلف ظنونه وتبدد آماله، وهو مُصِرٌّ على نيل ما يطلب والظفر بما يؤمل فيكون المطال وخلف الوعد !!.

ويتحدث شاعرنا بعد ذلك في نبرة حزينة نادمة على بذل ثنائه ومديحه لقومٍ لا يستحقون الإطراء، ولا يستأهلون الثناء، ويتوعد هؤلاء – إن كُتِب له البقاء –ـ بأن يكون لهم منه الانتقام والغارات بدلا من المدح والإطراء، وسيحرص على النيْل منهم، ولا محيد له عن ذلك، فحياته رحيل وخطار بالنفس، وسفرٌ واغتراب.

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لذا الزمن
يخلو من الهمِّ أخلاهم من الفطن
وإنما نحن في جيلٍ سواسية
شرٌّ على الحُرِّ من سقمٍ على البدن
حولي بكل مكان منهم خلق
تخطي إذا جئت في استفهامها بمن (١٨)
لا أقتري بلداً إلا على غَرَرٍ
ولا أمرُّ بخلقٍ غير مضطغن (١٩)
ولا أُعاشر من أملاكهم أحداً
إلا أحقُّ بضرب الرأس من وثن
إني لأعذرهم مما أعنفهم
حتى أعنف نفسي فيهم وأَنِي (٢٠)
فقر الجهول بلا عقلٍ ولا أدبٍ
فقر الحمار بلا رأسٍ إلى رسن
ومدقعين بسبروتٍ صحبتهم
عارين من حلل كاسين من درن

خُرَّاب باديةٍ، غرثى بطونهم
مكن الضباب لهم زادٌ بلا ثمن (٢١)
يستخبرون فلا أُعطيهم خبري
وما يطيش لهم سهم من الظِّنَنِ
وخَلَّةٍ في جليس أتقيه بها
كيما يَرَى أننا مثلان في الوهن (٢٢)
وكلمة في طريقٍ خفتُ أعربها
فيُهْتَدَى لي فلم أقدر على اللحن
قد هوَّن الصبر عندي كل نازلة
ولين العزمُ حدَّ المركب الخشن
كم مَخْلَصٍ وعُلاً في خوض مهلكة
وقتلة قُرنت بالذم في الجبن
لا يُعجبنَّ مَضيماً حُسن بزَّته
وهل يروق دفيناً جودة الكفن
لله حال أُرجّيها وتخلفني
وأقتضي كونها دهري ويمطلني
مدحتُ قوماً وإن عشنا نظمت لهم
قصائداً من إناث الخيل والحصن

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا (٢٣)

وهو مطلع مقطوعة ذاتية من شعر الحكمة، بلغت عدتها عشرة أبيات، ذكر شراح الديوان أن أبا الطيب قالها بمصر ولم ينشدها كافورا، وهي حكمية تأملية نادرة المثال. بدأها مبيناً أن الناس قبلنا قد عايشوا صروف الزمان وأحداثه، وشكوا منه مثل شكوانا، وانهزموا يتجرعون كئوس الألم، ويلعقون الجراح، وربما نال بعضهم سروراً محدوداً، فهذا شأن الزمان، وتلك شيمته ؛ إذ قد يحسن الصنيع، ولكن لا يلبث أن يُكَدِّر الإحسان، ومن العجيب أن بني البشر لم يكفهم ما يُنزله بهم الزمان فتفنن بعضهم في الإيقاع بالآخرين وكأن الزمان كلما ابتدع سلاحا يحارب به بني البشر عاونه فريقٌ منهم فأضاف إلى ذلك السلاح ما يزيده فتكاً وإهلاكا !!

ثم يبين أبو الطيب أن الناس لو أنصفوا لاستراحوا وأراحوا ؛ لأن رغباتهم وتطلعاتهم لا تستحق هذا التكالب والتعادي والتناحر، فهي أهون من ذلك وأحقر بيد أن من طبع الإنسان أن يأنف من التعرض للإهانة، ويتجرع الموت راضيا ولا يرضخ للذل والهوان، ولو كانت الحياة تبقى لإنسان لكان الشجعان في نظرنا أول الحمقى المتهورين، ولكنْ لأن الحياة لا تدوم لأحد فلا مندوحة عن دفع الضيم لأنه طالما لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن يموت الإنسان جبانا، وكل صعب على النفوس يسهل عندما ينزل بها ويقع.

صَحِبَ الناسُ قَبْلنا ذا الزمانا وعناهم شأنه ما عنانا
وتولَّوْا بغُصَّةٍ كلهم منْهُ وإن سرَّ بعضَهم أحيانا
ربَّما تُحْسِن الصنيع لياليه ولكِنْ تُكَدِّر الإحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا
كلَّما أنْبتَ الزَّمان قناة ركَّب المرء في القناة سنانا
ومُراد النُّفُوس أصغَرُ منْ أنْ
نَتَعادَى فيه وأن نَتفانَى
غير أنَّ الفتى يُلاقِي المَنَايا كالحاتٍ ولا يُلاقِي الهوانا
ولَوَ ان الحياةَ تبْقَى لحيٍّ لعدَدنا أضَلَّنا الشُّجعانا
وإذا لم يكُنْ من الموت بُدٌّ
فمِنَ العَجْزِ أن تَموت جَبانا
كلُّ ما لم يكن من الصعب في الأنفس [م]
□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
□□□□□□□□□سهْلٌ فيها إذا هو كانا

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسب الأماني أن يكُنَّ أمانيا[٢٤]

وهو مطلع إحدى مدحياته كافورا، ويبدو من سياقها أنها مما قاله في بداية قدومه مصر، إذ كانت أصداء حياته في حلب لا تزال تلح عليه، وتملأ جوانب نفسه، ولم يكن قد تخلص منها بعد، ومن أمارات ذلك غلبة روح اليأس التي كادت تسد على شاعرنا الآفاق، وتكتم الأنفاس، وتشيع في نفسه القنوط ؛ لذا رأيناه يؤكد أن أقصى ما يصل إليه الإنسان من مشاعر اليأس

والإحباط أن لا يرى لدائه شفاء إلا بالموت، وهذا الشعور بحد ذاته كافٍ لأن يبلغ اليأسُ والإحباطُ بأبي الطيب كُلَّ مبلغ، ومن ثم استطرد بعد ذلك المطلع مكملا ومتمماً معناه بقوله :

تَمنيْتُهَا لمَّا تمنيت أن ترى صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا

يقصد أنه تمنى الموت عندما أَمَّل أن يجد له في الحياة صديقاً مخلصاً يأنس به وتسره صداقته، أو عدوًّا ساتراً لعداوته فأعياه الأمران جميعا، ثم استطرد في السياق الحكمي في بقية الافتتاحية، مؤكداً أن من يرضى بعيش الذل فحريٌّ به ألاَّ يهيء سيفا أو رُمحاً أو شيئاً من أدوات الحرب والنزال، وحاله هذه تعني الضياع والفناء ؛ لأن الأسد الذي شأنه أن يحصل على قوته بالافتراس والفتك لو غيَّر من طبعه، وتكلَّف الحياء والقناعة لهلك جوعا، ولَمَا خافه أحد، ولا نفر منه إنسان !! ثم يعاتب قلبه على تطلِّعه إلى حبٍّ من ابتعد عنه، وكان غادراً به ويخاطب قلبه قائلا : أحرى بك أن تكون باراً بي وفِيًّا، ولا تغدر بي أنت أيضاً !! فلتقطع كل عاطفة تراودك نحو وصل ذلك الغادر، ويستطرد في مناجاة قلبه، واستبطان مشاعره فيقول : أراك يا قلبي ضائقاً من هذا الفراق وإني أَرْبأُ بك أن تشكو أو تضعف أمام تلك الإحساسات ؛ لأن من يفارق مختاراً فلا وجه

للدموع التي تذرف من أجله. وهو في هذا كله يعرِّض بتعلق نفسه بمقامه بحلب في عهده الأول عند سيف الدولة.

ثم يبين أن الجود إذا لم يكن مُبَرأً من المنِّ والأذى فلا قيمة له ؛ لأنه لا يُكسبُ حمداً، ولا يُبقي مالاً، وأن أخلاق الإنسان تدلُّ على طبيعته إن كان جواداً أو متكلفاً للجود !! ثم يخاطب قلبه داعيا إياه أن يكف عن الاشتياق إلى من لا يشتاق إليه ؛ لأنه من الخُسران أن يُحب الإنسان من لا يقابل محبته بما يضارعها، ويعتذر عن مراودة تلك المشاعر له، وتصارعها في نفسه بأنه بطبعه قد خُلِق ألوفاً لمن يُلِمُّ بهم أو تربطه بهم أيُّ علاقة، حتى إنه لو فارق شَيْبَهُ عائداً إلى صباه لوَجِدتْ نفسه، وعانتْ روحه بسبب ذلك الفراق، ولاشتاقتْ إلى ما بانتْ عنه وفارقته وإن كان مكروها منبوذاً !!

كَفَى بكَ داءً أن تَرى الموت شافياً
وحسْبُ الأمانِي أن يكُنَّ أمانيا
تمنَّيْتَها لمَّا تَمَنَّيْتَ أن تَرَى
صديقاً فأعْيا أو عدوًّا مُداجِياً (٢٥)

□□□□□إذا كُنْت تَرضَى أن تَعِيش بذلَّةٍ
فلا تسْتعِدَّنَّ الحُسام اليمانيا
ولا تَسْتطِيلَنَّ الرِّماح لغايَةٍ
ولا تَسْتَجِيدَنَّ العِتاق المذاكيا
فما ينفع الأُسْدَ الحياءُ من الطَّوَى
ولا تُتَّقَى حتى تكون ضواريا
حَبَبْتُكَ قلْبِي قبل حُبِّك مَنْ نَأَى
وقد كان غدَّاراً فَكُنْ لِيَ وافِيا
وأعْلم أنَّ البيْنَ يُشْكِيكَ بعْده
فلسْت فُؤادي إن رأيْتُكَ شاكيا
فإنَّ دمُوعَ العَيْنِ غُدْرٌ بِربِّها
إذا كُنَّ إثْرَ الظاعِنِينَ جَواريا
إذا الجُودُ لم يُرزقْ خُلاصاً من الأذَى
فلا الحمْدُ مكسوباً ولا المال باقيا
وللنفْس أخلاقٌ تَدُلُّ على الفتى
أكان سَخاءً ما أَتَى أم تساخيا
أقِلَّ اشْتِياقاً أيُّها القلْبُ رُبَّما
رأيْتُكَ تُصْفِي الوُدَّ من ليس جازياً
خُلِقْتُ أَلُوفاً لو رحَلْتُ إلى الصبا
لفارقْتُ شَيْبِي مُوجع القَلْب باكيا !!

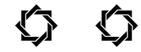

ومن ألوان تلك النوعية التأملية الحكمية من المطالع ما يتجه فيه أبو الطيب للتعبير عن اعتزازه بشخصه وشعره وإبائه الدنيات كهذا المطلع :

= لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضام مدرك أو محارب لا ينام [٢٦]

وهو مطلع قصيدة مدحية، ويلاحظ أن حديث الذات شغل ما يقارب ثلثها، وجاءت افتتاحيتها في ستة أبيات، وأتت متوائمة متناسقة، ممهدة لمضمون القصيدة وهي قوله:

□□□لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضام مُدرك أو محارب لا ينام

ليس عزماً ما مرَّض المرء فيه

ليس هما ما عاق عنه الظلام

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاءُ تضوى به الأجسام

ذلَّ من يغبط الذليل بعيشٍ ربَّ عيش أخفُّ منه الحمام

كل حِلْم أتى بغير اقتدار حجة لاجيء إليها اللئام

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميتٍ إيلام

□□□□□والافتتاحية متكاملة المعنى، مترابطة الأفكار، يتضح من مجملها أن أبا الطيب جعل دستوره في الحياة الإباء والأنفة، ومن ثم يؤكد أن الفخر الحقيقيَّ لا ينبغي أن يكون إلا للأبي العزيز، الذي لا يقيم على ضيم ولا ينام عن وتر، أما من ينكص على عقبيه، ويسوق الأعذار ويختلق التَّعِلات – فلا يسوغ أن يوصف بأنه ذو عزيمة أو صاحب همة، ويؤكد شاعرنا تلك الحقيقة من جانب آخر فيذكر أن احتمال الأذي والتعرض للضيم، والاضطرار إلى مداراة الطغاةوالصبر على أذاهم يمثل عبئاً نفسيا ثقيلا يقع على كاهل من يتعرض لذلك، وقمين بمن ابتلي بذلك أن يهزل جسمه، وتضعف قواه ؛ لثقل وطأة ما يقاسيه، وإن من يحسد الذليل على ما قد يكون فيه من متاع مادي رخيص – واهم مخطيء ؛ فحياة أمثال هؤلاء كالعدم، وربما غدا الموت أهون وأفضل من حياة الأذلاء مع ما يتعرضون فيها للقهر والإرغام، ومن يزعم لنفسه الحلم مع العجز ينعت الأشياء بغير نعتها الحقيقي، ويسمي عجزه ونكوصه حلماً وما هو بحلم بل هو تعلل اللئام، واحتيال العاجزين، وينهي أبو الطيب افتتاحيته الرائعة بالتأكيد على تلك الحكمة الخالدة، إذ يذكر أن خطر تجرع الهوان وقبول الذل يكمن في اعتياد النفس الضعيفة له، وركونها إليه وعدم الشعور بالغضاضة تجاهه، ومن ثم يسهل أمره ويغدو شيئا مألوفا، فلا يكون له وقع مؤلم يدفع لرفضه وإنكاره، ويتبلَّد حس من يتجرعه فيشبه الميت الذي لا يتألم ولا يتأثر ولا يشعر.

مقدمات الغزل والمطارحة الغرامية

وهو نمط فيه محاكاة لتجارب الشعراء القدامى في المقدمات الغزلية، والمطارحات الغرامية مع الحسناوات، ومن خلال ذلك يكون البث والبوح، وتصوير الإحساسات والمشاعر. وقد برع أبو الطيب في ابتداع ألوان من ذلك الغزل الصناعي الطريف، كشف فيها عن عبقريته، وجارى الشعراء الآخرين فبذهم في كثير من الأحيان، إذ حشد في تلك المطالع والافتتاحيات معاني الصبابة والشوق الغالب، والشكاية من الهجر والبين، وطلب المساعدة من الرفاق...، إلى غير ذلك من المعاني التي عبر عنها الشعراء وتفننوا فيها. ولعل ما نلحظه في بعض تلك المطالع والافتتاحيات من تكلف أو تعقيد ناتج عن رغبة أبي الطيب في الإتيان بما لم يُسبَق إليه، وكان ذلك يدفعه دفعا إلى الغلو والمبالغة، وق–د يبلغ لديه في بعض الأحيان حدَّ الإحالة.

وأعرض من تلك النوعية المطالع التالية :

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

وهو مطلع طللي يعد مع ما تلاه من الافتتاحية من روائع إبداعات أبي الطيب وابتكاراته وتوليده للمعاني ؛ إذ يخاطب ديار الأحبة مبينا مكانتها في شغاف قلبه، ويسوق مفارقة عجيبة تتمثل في خواء الديار من قاطنيها من جانب وبقاء ذكرياتها ماثلة في قلبه من الجانب الآخر والمجانسة بين منازل الأحبة ومنازلها في القلوب وكذا المطابقة بين : (أقفرت ≠ أنت.... وهن منك أو اهل □ أكسبت البيت جمالا فوق جمال... والافتتاحية في جملتها قطعة من الفن الرفيع بل القصيدة كلها ؛ إذ هي في مدح القاضي الأنطاكي، وافتتاحيتها تقتضينا وقفة نلمس من خلالها براعة المتنبي في اصطناع حديث الأطلال والشوق والصبابة وهذه هي الافتتاحية بجملتها، وقد أطال فيها طلباً للتفنن وإظهاراً للبراعة الفنية والمقدرة التعبيرية بين يدي الممدوح يقول :

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهنَّ منك أواهل
يعلمن ذاك وما علمت وإنما أوْلاكُما بِبُكى عليه العاقل
وأنا الذي اجتلب المنية طرفه فمن المطالَب والقتيل القاتل
تخلو الديار من الظباء وعنده من كل تابعة خيالٌ زائر
اللاء أفتكها الجبان بمقلتي وأحبها قرباً إليَّ الباخل
الراميات لنا وهن نوافرٌ والخاتلات لنا وهن غوافل

كافأننا عن شبههن من المها فلهن في غير التراب حبائل
من طاعني ثغر الرجال جآذرٌ ومن الرماح دمالج وخلاخل
ولذا اسم أغطية العيون جفُونها
من أنَّها عمل السيوف عوامل
كم وقفة سجرتك شوقاً بعدما غري الرقيب بنا ولـجَّ العاذل
دون التعانق ناحلين كشكلتيْ نَصْبٍ أدقَّهما وضـمَّ الشاكل
إنعَمْ ولذَّ فللأمور أواخـر أبدأ إذا كانت لهـن أوائل
ما دُمتَ من أرب الحسان فإنما روق الشباب عليك ظلٌّ زائل
للهـو آونـة تمرُّ كأنـها قُبَلٌ يُزَوَّدُها حبيب راحل
جمح الزمان فما لذيذٌ خالصٌ مما يشوب ولا سرور كامل

وهكذا نرى أن أبا الطيب قد حلَّق بنا في آفاق ساحرة، وطوَّف بنا في أفياء وارفة، وأخذنا في رحلة خيالية مفعمة بالسرور والحبور حافلة بالأضواء والظلال، احتشدت فيها الصور، وتعانقت المعاني، وتجاذبت الأفكار، وانصهرت جميعا في بوتقة الصنعة الماهرة لتخرج لنا تلك الافتتاحية الرائعة.

فبعد المطلع الذي بينا دلالته يقول أبو الطيب مكملا تصويره : إن منازلك في القلوب أيتها الأطلال يعلمن حقيقة ما لك عندهن من إعزاز ومودة وأنت لا تعلمين، وما أولى القلوب العاقلة المعانية بأن يُبكى عليها، ويُرثى لها من تلك التي لا تعقل ولا تدري ولا تحس !! ثم يلتفت في سياق تعبيري جميل إلى نفسه فيؤكد أنه هو الذي جلب حتفه بنفسه، أو إن أردنا الدقة قلنا اجتلب حتفه بطرفه الذي أرسله على الحسناوات الفاتنات فاستبين لبه وصَرَعْنَ فؤاده، فمن يُطالِب إذاً وهو القاتل والقتيل والجاني والمجني عليه ؟!!، ثم إن ديار الأحبة أو أطلالها ربما خلت من الظباء وأطلائها وفي قلبه من طيوف أحبته أرسال متتابعات، ووفود غاديات رائحات لا تفارق وجدانه، ولا تغيب عن خاطره. وهؤلاء الآسرات الفاتنات أكثرها فتنة لي المبتعدة النافرة، وأحبها إلى نفسي العصية الباخلة، وهن ترميننا بألحاظهن وهن نافرات، وتأسرننا بسحر جمالهن وهن غافلات، لا يقصدننا ولا يدرين بما فعلن بنا، وكأنهن يعاقبن الأوادم وبني البشر على صيد المها بأن يصدن قلوبهم ويستولين على ألبابهم، إنهن يحاربننا ويصوبن الأسلحة إلى نحورنا، وما تلك الأسلحة سوى الدمالج والخلاخل، ثم تأتي فريدة أبي الطيب

التصويرية الرائعة إذ يعقد في براعة صلة متوهمة بين تسمية أغطية العيون بالجفون وإطلاق تلك التسمية على أغمدة السيوف بأن فعل عيون الفاتنات الجميلات في قلوب المحبين يشبه فعل السيوف في الفتك بالخصوم فساغت التسمية وصح الإطلاق !!

ويستطرد أبو الطيب فيذكر أنه كثيراً ما تعرض لمواقف الْتَقَى فيها بمن يهوى مقتربا منها، وقد رصده الرقباء، وتثر حول علاقتهما الوشاة، وكان اقتراب ذينك العاشقين قريباً جدا، وقد بلغ بهما النحول مبلغه حتى صارا في وقفتهما تلك يشبهان شكلتي النصب (أي الفتحتين في حال النصب والتنوين) اللتين أجاد الشاكل صنعهما وضمهما إلى بعضهما في تناسق وتساوق !!

ويقترب بنا شاعرنا البارع من نهاية الافتتاحية فيسوق نصائحه للمحب الواله قائلا له : تنعم وتلذذ وخذْ حظك من المتع والطيباب فلكل ذي بداية نهاية، ما دمت في عمر الشباب، وما دام للحسناوات فيك أرب لأن الشباب عنك زائل ولك مفارق، وما أشبه متع الشباب ولهوه وسروره بقبلٍ يتزود بها الحبيب الراحل من حبيبه، فلتأخذ حظك من تلك المتع ولتحذر غدرات الدهر ومفاجآته وتكديره الصفو وتبديده السرور!!.

۞ ۞ ۞

كدعواك كلٌّ يدَّعي صحة العقل

ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل (٢٧)

وفي الافتتاحية توظيف رائع للمطلع الغزلي للإيحاء بما يحب الشاعر وما تنطوي عليه نفسه، ومسايرة للجو العام للقصيدة ؛ إذ يمدح بها القائد الفارس (دِلَّيْر) الذي قاد حملة لتخليص الكوفة من غوغائية القرامطة وفسادهم، فلما علموا بتوجهه لقتالهم رحلوا عنها فارين مذعورين...، فالجو العام للقصيدة جو فروسة وبطولة وهذه هي الوقائع والأحداث التي يحبها شاعرنا، وتتوق إلى خوض غمارها نفسه، ومن ثم كنى عن محبوباته بالبيض ويريد بها السيوف، والسمر ويقصد الرماح، وأنه يفضل ذلك عما يتعلق به سواه من حب النساء، ويؤكد أن القلب الذي لا شغل له إلا الافتتان بالغواني الجميلات وما يشاكلها من لذات الحس، والمتاع المادي قلبٌ فارغ جدير بالعدم...، ثم يطالب فتاته أن تتركه وما يريد ليحقق آماله وطموحاته، ويبيِّن لها أن عظائم الأمور ومعاليها تتطلَّب تضحيات جُلَّى، وفداءً وبذلا وهَيِّنُها يتحقق بالهيِّن الميسور من الجهد، ثم يلومها على تصورها أن تُنال المعالي دون تضحية، ويؤكد لها أن ذلك لا يمكن أن يحدث فلا بد

دون الشهد من إبر النحل !! ويوضح لها أن خوفها عليه وعلى رفاقه لا مبرر له، لأنها لا تعلم أن عاقبة اللقيا ستكون نصرا لهم وظفرا !!.

كدعواك كل يدعي صحة العقل
ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل
لِهَنَّكِ أَوْلَى لائِم بملامةٍ
وأحوج ممن تعذلين إلى العذل [٢٨]
تقولين ما في الناس مثْلَكَ عاشقٌ
جِدِي مثلَ من أحببتُه تجدي مثلي
مُحِبٌّ كَنَى بالبيض عن مرهفاته
وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أنني
جَنَاها أحبَّائي وأطرافها رُسْلي
عدمت فؤاداً لم تبت فيه فضلة
لِغَيْر الثَّنايا الغُرِّ والحَدَق النُّجْل
فما حَرَّمتْ حسناءُ بالهجر غِبطةً
ولا بَلَّغتْها مَنْ شكا الهجر بالوصل
ذريني أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين لِقيان المعالي رخيصة
ولا بُدَّ دون الشهد من إبر النحل
حَذِرْتِ علينا الموت والخيل تلتقي
ولـــمْ تعلمـــي عـــن أيِّ عاقبـــة تُجلـــي

[٢٩]□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
□□□□□

مقدمات موضوعية :

وهي تعد مدخلا مباشراً لموضوع القصيدة، وسمتها الوضوح والطرافة، وهذا النمط من المطالع والافتتاحيات كثير في شعر أبي الطيب. ومن أمثلته المطالع التالية :

لكل امريء من دهره ما تعوَّدا
وعادات سيف الدولة الطعن في العدا
وأن يُكْذِب الإرجاف عنه بضده
ويُمسي بما تنوي أعاديه أسعدا

وهو مطلع إحدى سيفياته، وهو يُشعِر بموضوع القصيدة ويمهد لما سيذكره الشاعر من بسالة الممدوح وفتكه بخصومه وتمكنه منهم.

□□□□□□□دروعٌ لملك الروم تلك الرسائل
يردُّ بها عن نفسه ويُشاغل

وهو مطلع إحدى السيفيات، وقد ذكر الشراح أن أبا الطيب قال هذه القصيدة وقد وفد على سيف الدولة رسول ملك الروم في سفارة وقد جعل أبو الطيب الافتتاحية مدخلا طبعيا لموضوعه بل هي جزء لا يتجزَّأ منه.

۞ ۞ ۞

قفا تريا ودقي فهاتا المخايل ولا تخشيا خلفا لما أنا قائل (٣٠)

وهو مطلع مقطوعة بديعة من شعر الصبا، يتضح منها علو همة أبي الطيب، ورسوخ نزعة الاعتزاز والثقة بالنفس فيه منذ مقتبل العمر، وقد بدأها الشاعر مخاطبا صديقيه المتخيلين – على عادة الشعراء العرب القدامى – قائلا لهما : تمهلا قليلا لتريا كيف يتحقق ما حدثتكما عنه من عُلُوِّ شأني، فقد بدتْ مخايله، وظهرت أماراته ولا تخشيا خُلفا لذلك، ثم تحدث عن خصومه فبين هوان شأنهم، وأن بعضهم يعيبه بما هو موصوم به مشهور عنه من عيوب، وبعضهم جاهل يظن – كما يقول أبو الطيب – أنِّي لا أدري حقيقة جهله، ولو أنصف هؤلاء ونزعوا عن أعينهم غشاوات الحقد لأدركوا أنني لو ملكت أقطار الأرض، وبلغت عنان السماء لكان ذلك كله أقل مما أستوجب وأدنى مما أستحق ؛ لعلو همتي، وسموق آمالي ومطامحي وإنني في حلمي ووقاري كالجبل الأشم الراسخ الذي لا يتحرك ويضطرب إلا لأمرٍ جلل، وهكذا أنا إذا رأيت من يعتدي عليَّ، أو يقصد

إهانتي عندئذٍ سأثور وأغضب وأُستَفَزُّ، كما يضطرب الجبل إذا وقع به زلزال، وأنا إن شعرت بأن موضعا من الأرض سيعرضني للضيم، أو تُنْتَقَصُ فيه كرامتي رحلتُ عنه، وأضنيت إبلي طلباً للابتعاد عنه والنجاة من براثنه، وصارت إبلي تقدح الحصى الذي يضيء لي ولرفاقي في ظلمة الليل، وكأننا على ظهور تلك الرواحل نقطع الفيافي الواسعة في موج متدافع وسط بحر واسع متلاطم، لا ساحل له، ويشبِّه الصحروات التي يقطعها بأصداء الصوت التي تتجاوب في الفضاء الفسيح. ثم يبين شاعرنا أن من كان على شاكلته أو أمَّل من المجد ما أمَّل استهان بالخطوب وتساوى عنده الحياة والموت ؛ ليقينه بأن ما يطلبه، ويسعى لتحقيقه محوط بالأخطار، محفوف بالمهالك، ومن جعل له هدفا سامياً فعليه أن يسترخص الموت ولا يحرص على الحياة. ثم يذكر أنه لكثرة أسفاره وتنقله في المفاوز والصحراوات المترامية الأطراف كأنها تقذفه من موضع لآخر ولا تريد أن تحتفظ به أو تسمح له بالبقاء، كما تكره الآذان سماع كلام العذال وترمي به غير عابئة به، وتأتي بعد ذلك درة هذه القصيدة وهو قوله :

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلا

تساوى المحايي عنده والمقاتل

يريد أن يبن أن من طلب ما أطلب من المجد، وتطلَّع لمعالي الأمور وسامِقِ الرتب فلا بدَّ له أن يستهين بالأخطار، وأن يوطن نفسه على ملاقاة الشدائد، وأن يستوي في نظره الموت والحياة، طالما كان حريصا على بلوغ ما يطمح إليه، ويسعى لتحقيقه.

ثم يوجه تهديده لأعدائه مبينا لهم أن المعركة بينه وبينهم لا مفر منها، ولا هوادة فيها، وأنه عازم على الفتك بهم والقضاء عليهم، ووسيلته لذلك مناصبتهم العداء، ومبادرتهم بالنزال، وليس عن طريق المكر والدس والخداع وأن السيوف التي سيحمل بها عليهم لا تفرق بين مقبل ومدبر، أو شجاع وجبان بل ترغم الجميع. ثم يختم قصيدته ببيان أن شغله الشاغل ينصبُّ على ما يحفظ عليه كرامته ومكانته، ولا يقبل هوانا أو دنِيَّة فيما يتصل بذلك الجانب، ولا يعبأ بنعومة العيش وطيب المأكل والمشرب، بقدر ما يعنيه أن يحيا موفور الكرامة، مرعيَّ الجانب.

قِفا تَريا ودْقِي فهاتا المخايل
ولا تخشيا خُلْفاً لِما أنا قائلُ [٣١]
تُحَقِّرُ عندي همَّتي كلَّ مطلَبٍ
ويقصر في عيني المدى المتطاول
وما زلتُ طودا لا تزول مناكبي
إلى أن بَدَتْ للضَّيْمِ فِيَّ زلازل
فقلقلت بالهَمِّ الذي قلقل الحشا
قلاقِل عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ [٣٢]
إذا الليل وارانا أرتْنا خِفافُها
بقدح الحصى ما لا ترينا المشاعلُ
كأني من الوجناء في ظهر موجة
رمِتْ بِي بِحاراً ما لهُن سواحلُ
يُخَيَّلُ لي أنَّ البلاد مسامعي
وأَنِّيَ فيها ما تقول العواذل
ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلا
تَساوَى المُحايِي عنده والمُقاتل
ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم
وليس لنا إلا السُّيُوف وسائِلُ
غثاثة عيشي أن تغث كرامتي
ولـــــــيس بِغَـــــــثٍّ أن تَـــــــغَثَّ المآكِـــــــلُ

[٣٣]□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□
□□

مقدمات البَثِّ والشكوى والتصبر :

ومن أمثلتها قوله :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر
وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر [٣٤]

وهو مطلع قصيدة مدحية في افتتاحيتها حديث عن شجاعة أبي الطيب وتمرسه بالآفات، وتوقِهِ للمجد، ونفوره من الخمول والانزواء، وإيثاره الخطار بالنفس، وإثارة الصخب والضجيج من حوله. يعاود فيها شاعرنا تأكيد معنًى طالما كرره وألح عليه، وهو أنه يصارع الدهر وحيدا لا معين له إلا صبره وجرأته وقوة نفسه، وشدة جلده، وليس هناك من هو أشجع منه، وسلامته من تلك الأهوال والأخطار دليل على عظم شأنه، وصدق بلائه، وهو لذلك كله يتوقع مجدا باذخا، ونصرا مؤكدا !! ثم إنه قد تمرس بالأرزاء، وبلا الأخطار، حتى يئست الخطوب من القضاء عليه، وفشلت في الإيقاع به، وانصرفت عنه حائرة متعجبة، هل خاف منه الموت ؟ هل ذعر منه الذعر ؟ إنه يُقدم في مواقف النزال إقداما يرهب الخصوم، ويُجفل المناوئين، وكأنه لا يحمل بين جنبيه نفسا واحدة بل نفوسا كثيرة، كلما هلكت إحداها قامت الأخرى مقامها، وسدت ثُلْمتها، أو كأنها نفوس متصارعة لكل منها عند الأخرى ثأرٌ تطلبه!!

ثم يستخلص العبرة من ذلك الوصف الذي وصف به نفسه، فيطلب من سامع شعره، ومحب مذهبه وفلسفته أن ينهج في الحياة نهجه، ويسلك مسلكه، فيأخذ حظه من الحياة على حسب ما يريد لا على حسب ما تمنحه الظروف، ويسمح به الزمان، ولْيُقْدِمْ العاقل إقدامه، وليخاطر خطاره ؛ لأن للإنسان أجلا محدودا، وهو مفارق دنياه لا محالة، فلا مناص من التشمير عن ساعد الجد، إذ المجد ليس شيئا هينا مبذولا، بل هو قرين الخطر والإقدام، وناتج تضريب أعناق الملوك، وأن تثير في محيطك الزوابع، وأن تترك حولك دويًّا يُصِمُّ الآذان، ويرعب القاصي والداني، ويخوِّف القريب والبعيد، حتى ليكاد من يسمع ذلك الدويَّ يضع أصابعه كلها في أذنه حتى يحول بين سمعه وبين ذلك الدوي المرعب !!.

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر
وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر ؟!
وأشجع مِنِّي كل يوم سلامتي
وما ثَبَتَتْ إلا وفي نفْسها أمْرُ
تمرَّسْتُ بالآفات حتى تركْتُها
تَقُول : أمات الموتُ أم ذُعِر الذعرُ
وأقدمتُ إقدام الأتيِّ كأنَّ لِي

سِوَى مُهْجَتي أو كان لي عندها وتر [٣٥]

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمُفْتَرَقٌ جاران دارهما العُمْرُ

ولا تحسَبَنَّ المجْدَ زِقًّا وقينة
فما المجْد إلا السيْفُ والفتكة البكْرُ

وتضريب أعناق الملوك وأن تُرَى
لك الهبوات السود والعسكر المجر [٣٦]

وتركك في الدنيا دويا كأنما
تَداول سمع المرءِ أنمُلُه العشر

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللئام [٣٧]

وهو مطلع قصيدة مدحية تعدُّ افتتاحيتها دُرَّة من درر الفكر النابه الذي تميز به أبو الطيب، وهو يرسم صورة رائعة لشخصية شاعرنا وضيقه بأهل زمانه، وشعوره بالتميز والتفرد، والغربة بين أهل ذلك الزمان وكل الأزمنة، فهو ذو قلب كبير، وهِمَّة لا حدَّ لطموحها، وليس كمن تشغله أو تسليه الخمر أو ما يُغيِّب العقل ويُخدِّر الوجدان، وإنما يتوق لتحقيق آمال وبلوغ أُمنيات لا يغفل عنها، ولا يشغله دونها شاغل، ومن أسفٍ أن عمر الإنسان لا يمكنِّه مما يريد ولا يبلغ به مأربه، لأنه بالقياس إلى المطامح قصير ضيِّق.

ولهذه المقدمة إيحاء قويٌّ بما يعانيه الشاعر، وما يحسه تجاه زمنه وآماله، وما يحمله من همٍّ دفين، ليس له ما يُفرِّجه أو يُخفف منه، ثم يعقب ذلك بالنتيجة الحتمية لذلك الإحساس وهو أنه يعيش في زمن هو فيه غريب، وطبعه بالقياس لمعاصريه مختلف جدًّا، فناس ذلك الزمان ناس ذووا نفوس صغار، وينطوون على خواء لا محصول له ولا مردود، وإن بدا ظاهرهم أن لهم أجساما ضخاما، وجثثا مهولة، ثم يؤكد أنه ليس من ناس عصره ولا من قبيل أهل زمانه، وإن كان يعايشهم، ويساكنهم، ويختلط بهم ولا غرابة في ذلك، فأنفس المعادن وأغلاها شأنا يختلط بالتراب والطين، ولا يعيبه ذلك، أو يُنقص من نفاسة جوهره، ويستطرد في وصف أهل زمانه وما يحيط بهم من تخلف وجهل ، فيصفهم بأنهم ملوك في هيئة أرانب وأهل غفلة وهوان شأن، وإن بدوا متيقظين نابهين، ويذكر أن

هؤلاء الأوغاد يقتلهم ضعفهم وهوان شأنهم، واشتغالهم بالتوافه والصغائر، فهم يموتون تخمة وترفا وكأن عدوهم ومنازليهم هم الطعام والشراب وما إليه من الملهيات والتوافه، ويذكر في سخرية مريرة أن لهؤلاء الموسوَّدين زوراً وحمقا خيلا ولكنها لا تستخدم في النزال والطعان، وإنما في المتعة والتريُّض، والعبث الرخيص، وكأن ما عليها من أرماح هي أعواد لا قيمة لها ولا أثر. وهذا أبلغ ما يمكن أن يقال في صَغار هؤلاء الملوك وتفاهة ما يشغلون به أنفسهم، أويقطعون به أعمارهم، في غير ما عمل يؤثر، أو نفع يعمُّ، أو مجد يكتسب، أو ذكر يبقى !. ثم يرسل تلك الحكمة الرائعة إذ يؤكد أن الإنسان لا يحبُّ إلا نفسه، ولا يصادق إلا ذاته، وهو كأنه يتوجس من الجميع شرا، ويرى أن من يدَّعي أنه له صديق لا دليل لديه على ما يزعم ؛ لأنه لم يجد من أحد منهم ما يشهد بصحة دعواه، واعتدَّ كل ما يقال في هذا الشأن من قبيل التجمل، أو النفاق والتزيُّد، ثم يصف أهل عصره بأنهم افتقدوا الكرامة، والغيرة على الحقوق، وإباء الدنايا...، وغيرها من صفات المروءة والنبل ؛ لأن الإحساس بذلك يتطلب رُشدا وعقلا، وتقديراً للعواقب، وهم قد عَرَوْا من ذلك كله، ولو كان العقل غير معوَّلٍ عليه في ذلك لأدرك السيف فضل من صنعه فلم يضرب عنقه ولكنه لا يدرك ذلك ولا يحفظ لصانعه عهداً !!

ثم يذكر أن الدنيا لا عقل لها، ومن ثم فأمورها تسير على غير منطق ولا معقول، فأهل الحظوة فيها من أشبهها في الجهل والغفلة، فلا غرابة إذن في أن يسود الأسافل، وينحط الشرفاء الأماثل، إذ لو كانت الأمور تسير على ما ينبغي لاستقر الرغام على سطح الأرض ولعلا الجيش !! ولكن الواقع بخلاف ذلك، ويؤكد أبو الطيب ذلك المعنى بأنه لو كان لا يعلو إلا من يستحق العلو لكان أجدر أهل زمانه بالسيادة هم الرعية المنقادة وليس القادة المتسلطون !!

ثم يطلق أبو الطيب حكمة بليغة عن غدر النساء وشرهن فيقول : ومن يعرف حقيقة النساء وطبائعهن يرى عجبا عجيباً، فظاهرهن بهجة وضياء، وباطنهن بؤس وظلام، وإذا كانت حياة الإنسان موزعة بين الشباب والشيب، وكان أغلب أهل عصره يقضون شبابهم عابثين غافلين، ويتبعون ذلك في شيبهم بالحسرة على ما انقضى من عمرهم دون طائل فحياتهم هي والموت سواء، ووجودهم هو العدم !.

ثم يبين أن الناس ليسوا سواءً في تقويم نهجهم في الحياة، أو الحكم على صنيعهم في صروفها وأحداثها، ومن ثم فليس كل بخيل يلام على بخله أو يعذر إذا قتَّر على طالبي فضله، وإنما يكون ذلك بمقدار ما يشعر به من خطر ذلك المسلك، أو ارتياحه له، وعدم غضاضته منه. ثم يتعجب أبو الطيب من مقامه ولُبثه بين أقوامٍ لا يرعون حقه، ولا يحفظون قدره، ثم يذكر أنه لم يختر المقام بينهم بل يكره ذلك ؛ ليقينه بأنه لا يفارقهم إلا كريم، ثم يتمنى أن لو كان من يراهم في تلك البقاع قليلو العدد، موصوفون بالفضل والنبل، بدلا من تلك الكثرة غير المجدية، ثم يتحول للمدح ويلاحظ أنه جعل من هذه المقدمة تمهيدا لبيان تميز الممدوح في مروءته وصفاته، وكأن الشاعر صادف من كان يبحث عنه، ويودُّ لقاءه، بعد أن افتقد نمطه فيمن لقيهم وخالطهم !!.

فؤادٌ ما تُسلِّيه المُدام وعُمْرٌ مِثْلُ ما تَهَبُ اللئام (٣٨)
ودهرٌ ناسُه ناسٌ صغارٌ وإن كانت لهم جُثَثٌ ضخام
وما أنا منهُمُ بالعيش فيهم ولكنْ معدنُ الذهب الرَّغام (٣٩)
□□□□□أرانبُ غير أنَّهُمُ ملوكٌ مُفَتَّحةً عُيُونُهُمُ نِيام
بأجْسامٍ يَحَرُّ القتل فيها وما أعْداؤُها إلا الطَّعام
وخيْلٍ لا يخِرُّ لها طعينٌ كأنَّ قَنا فوارسِها ثُمامُ (٤٠)
خليلُكَ أنتَ لا مَنْ قلتَ خِلِّي
وإن كَثُرَ التَّجَمُّلُ والكَلام
ولو حِيز الحفاظ بغير عقلٍ تجنَّب عنق صيقله الحسام
وشِبْهُ الشَّيء منجذب إليه وأشبَهُنا بدنيانا الطَّغام
ولو لم يَعْلُ إلا ذو محَلٍّ تعالَى الجيش وانحط القتام
ولو لم يرع إلا مُستحق لِرُتْبَتِه أسامهم المُسامُ
ومن خبرالغواني فالغواني ضياء في بواطِنه ظلامُ
إذا كان الشباب السكر والشيبُ همًّا فالحياة هي الحمامُ (٤١)
وما كُلٌّ بِمَعْذورٍ ببخل ولا كُلٌّ على بُخْلٍ يُلامُ
ولم أر مِثْل جيراني ومثلي
لِمِثْلِي عند مثْلِهِمُ مُقام
بأرض ما اشتهيتُ رأيْتُ فيها
فليس يَفُوتُها إلا كِرامُ
فهَلاَّ كان نقصُ الأهل فيها وكان لأهلها منها التمامُ ؟! (٤٢)

ملومكما يجلُّ عن الملام ووقْــع فعاله الكلام (٤٣)

وهو مطلع قصيدته التي وصف فيها الحمى التي ألمت به في مصر وهي من غُرَرِ شعر أبي الطيب، حيث أرسلها الشاعر تنفيسا عن معاناة شديدة، وتصويرا لتجربة نفسية مؤلمة، انتهت به إلى اليأس، وعاين من خلالها كيف تتحطم الآمال، وتطيش السهام، ويخيب المسعى، ويكبو الجواد، وعلم في نهاية المطاف أنه تعلق بسراب خادع، وأسرى إلى مدى غير معلوم، وبنى حساباته على أوهام لا حقيقة لها ومنَّى نفسه الأمانيَّ !!.

وقصيدة الحمَّى تقوم وحدها دليلا على شاعرية المتنبي، وتمثل نمطا من الأدب الذاتي الرفيع، الذي يعكس ما يدور داخل أطواء النفس الإنسانية، وما يتردد في حناياها، وما تتجاوب به الذات الشاعرة مع العقل الواعي، بل ما تتماوج به المشاعر، ويُكِنُّهُ الضمير والوجدان...، ولقد أطلق المتنبي لنفسه العنان في التعبير الذاتي، ولم يشغل قريحته، ولا قيثارته بشاغل آخر، فأتت القصيدة نموذجا فريدا في الوحدة والتماسك، وقد أفردها للبث والشكوى والفخر ورفض الهزيمة، فأتت كلها حديثا ذاتيا خالصا، ومناجاة شخصية بحتة. وأكاد أحس من هذه القصيدة أن شاعرنا قصد أن يجعلها تعبيرا خاصا، ليس لأحد ولا لشيء آخر فيه نصيب، ومن ثمَّ أُتيحتْ له فرصة البوح بما تُكنه نفسه، والحديث الصريح عن دخيلة حناياه.

بدأ أبو الطيب مناجيا صديقي روحه، وسميري نفسه، وهما شخصان متخيلان جرت عادة الشعراء العرب أن يجعلوا من اصطناع الحوار معهما سبيلا إلى البث والمطارحة الوجدانية، قائلا لهما : يا من تلوماني وتسرفا في تعنيفي كَفَى لوْماً ! فأنا أعظم من أن أُلام، وأسمى من أن أُعنَّف، ولا تحسبا لومكما لي كلاما يقال، وحديثا يطرح، ثم يمضي هكذا دون أثر، أويمرُّ كأن لم يكن. كلاَّ ! إن وقعه على نفسي أشدُّ من وقع الجراح، فكيف لمثلي أن يُلام أو يتعقب الآخرون مسلكه، أو يُنتقَد منهجه في الحياة ؟! ألا فاتركاني وما أنتويته، وذراني وما قررته، ولا تخافا عليَّ الخطار، ولا تخشيا عليَّ بُعد الأسفار، ولا مشاق المفاوز التي أقطعها، والهجير الذي أتعرَّضُ للهيبه؛ فإني أرتاح لذلك النمط من العيش، وإن حُفَّ بالمخاطر، واكتنفته الصعاب. بل إني لأتعبُ وأنصبُ،

وأضيق وأضجر بالبقاء منزويا مهملا، قانعا بالانعزال والانطواء، وماذا تخشيا عليَّ ؟ أتظنان أنِّي أضل في الصحراء ولا أهتدي حتى أهلك ؟ كلا. فأنا أعلم من مسالك الطرق، ووسائل الاهتداء ما يعرفه البدو ويسلكونه عند الشدائد، فعيون إبلي تنوب عني في الاهتداء إن اختلطت عليَّ السبل، وإن نفد مني الماء في أثناء الرحلة احتلت احتيال الأعراب البصراء ببيئتهم فعددت البرق الذي يلمع في جانب الأفق، فإن بلغ حدًّا معينا رجَّحت أن يكون منه مطر وغيث فاتجهت ناحيته فارتويت وتزودت !! كما لا أحتاج إلى من يحرُسُني أو يحميني من الأخطار، فعناية الله عز وجل خير حامٍ، وأفضل حارس !! ثم إن معي سيفي وقلبي الشجاع، فلا أحتاج ما يحتاجه المنفرد من الحماية. ولا أقبل أن أنزل ضيفا ثقيلا على الأشحاء الباخلين ولو لم يكن لي زاد إلا ما أسدُّ به الرمق من بَيْضِ النعام أو ما يشبهه.

وبعد هذه الإضاءة التي ألمح فيها أبو الطيب إلى جانبٍ من صفاته وما جُبِل عليه يكشف لنا خبرته بالناس، واكتواءه بما لقيه منهم من ختل ونفاق، وكذب وادعاء، فيذكر أنه لما خبر طباع الناس واقتنع بأنه لا سبيل إلى صرفهم عما اعتادوه ودرجوا عليه – لما أيقن من ذلك جعل يبادلهم نفاقاً بنفاق، وابتساما مكذوبا بابتسام وهو على يقين من أنهم يضمرون له البغض والشنآن، وأصبح يتوجس ممن يريد أن يتخذهم أصدقاء مقربين ؛ لكون هذا الذي يفكر في أن يصفيه الودَّ واحدٌ من بني البشر، تغلب عليه طباعهم، ويتلوَّن في علاقاته كما يفعلون !! ثم يبيِّن أن العقلاء المجرِّبين يختارون من يمحضونهم الودَّ انطلاقا من اختبار أخلاقهم، وانتخاب خصال الخير فيهم، أما الجهَّال فيشغلهم المظهر الخادع، ويكتفون بالسمت الوسيم، ويبيِّن أبو الطيب أنه يلتزم معالي الأخلاق، ويُجِلُّ المتصفين بها، ويكره أهل اللؤم والوضاعة، ويتبرَّأُ منهم ولو كانوا من أقرب الناس إليه، ثم يتعجب ممن تقعد بهم هممهم، ويستتيمون إلى السفاسف والدناءات وكان المنتظر منهم أن يكونوا أهل مروءة ؛ لانتمائهم إلى أصول ماجدة، وأعراق طيبة، ولكن خصال اللؤم غلبتهم على صفات آبائهم وأجدادهم ويتحدث عن نفسه فيبيِّنُ أنه لا يكتفي بأن يُقال عنه أنه منتسب إلى أصولٍ عريقة وأرومة باذخة بل يضيف إلى أمجاد أسلافه أمجادا ومناقب، ومكرمات ومآثر وإن أبا الطيب ليعجب من كثيرين ممن يراهم ويخالطهم ؛ لأنه يرى لهم في باديء الأمر هيئة توحي بالغناء والكفاية، فإذا جُرِّبُوا انكشف خواؤهم، وتبين ضعفهم، وهو حزين من أجل أمثال هؤلاء، إذ أُتيحت لهم

الفرصة، وتمهدت لهم السبل فلم يرتقوا بأنفسهم، وآثروا أن يعيشوا هملا، وهؤلاء شأنهم عجيب، ومسلكهم محيِّر، فقد كانوا قادرين على بلوغ مراقي الرفعة ولكنهم رغبوا في التسفل والانحطاط !!.

ثم بدأ أبو الطيب يشرح مبلغ ما عاناه في مقامه بمصر، ويسرد خلاصة ما آل إليه حاله، بعد أن أمَّل من انتقاله إليها كبت أعدائه في بلاط سيف الدولة، حادساً أنه سيجني من رحلته تلك ما يغَصُّ به الحاسدون، وتتلظى منه غيظا قلوب الشامتين، فماذا كان المآل ؟ لقد تبددت تلك الآمال، وتقشعت الأحلام، وأصبح ذلك الشاعر الفذ، والعندل الصداح مهملا منزويا، لا يشعر به أحد، ولا يجد ما كان له عند سيف الدولة من مكانة ووجاهة، وذكر ونباهة، وشهرة وذيوع صوت...، لقد ضاع ذلك كله وتبدد، وذهب إلى غير رجعة واندحر وأين هو من ذلك كله الآن ؟ لقد لبث في مصر معزولا مهملا، لا دور له ولا مكانة، لا يروح ولا يجيء، لا أنصار ولا أشياع، ولا محبين ولا موالين !! لقد كان في عهده الأول لا يعرف القرار، وكانت حياته كلها أسفاراً وأمجاداً، ومشاركة في صنع الأحداث، وكان لا يكاد ينام في فراشه أو يأوي إلى مضجعه المعهود إلا الفينة بعد الفينة، وربما مرَّتْ الشهور الطوال دون أن يُلِمَّ بعشه، أو يأوي إلى مستقره، والعجيب أنه غدا في مصر مقيما لا يريم، جاثما لا يروح ولا يغدو، فملَّه الفراشُ بعد أن كان لا يعرف له قرارا!!.

ومما يضاعف من معاناته أنه لم يجد في مصر مسلاة تنسيه ما افتقد فعُوَّاده قليلون، وحُسَّاده والشامتون به لا يُحصَوْن عددا، وآماله محطمة، وأمانيه قد ذهبت بددا، وقلبه سقيم عليل، وجسمه لا يقوى على النهوض، كأنه ثَمِلٌ من الهَمِّ، ذاهلٌ من الشقاء والمعاناة !!

ثم ينقلنا أبو الطيب إلى دُرَّة قصيدته هذه وهو وصفه للحمَّى التي ألَمَّتْ به وصورة الحمى كما أبدعها أبو الطيب في هذه القصيدة من أعذب الصور الأدبية وأبرعها خيالا، وأحفلها بالشاعرية الفياضة، وقد أطال فيها شاعرنا، وساق حديثه عنها مساقا إيحائيا معبرا، إذ كنى عن الحمَّى بالزائرة، واستطرد في تصويرها على هذا المنحى الكنائي، حتى ليخيَّل لمن لم يعرف سياق القصيدة أن الشاعر يتحدث عن زائرة على الحقيقة، أو عن محبوبة واصلة، حرصت على الزيارة على خلاف العادة، وعلى عكس المألوف !!

وهاهي ذي الصورة كما رسمها أبو الطيب : إن الزائرة التي يحدثنا عنها حيية خجولة، تأبى أن تلم به في وضح النهار فتختار لذلك أن تأتيه تحت سدوف الظلام، وهو قد علم بأمر إلمامها وزيارتها فأعدَّ لها ما يليق من فرش ومتَّكآت وأغطية ووسائل راحة ولكنها تركت ذلك كله وأبت إلا أن تنزل في صميم جسمه وعمق عظامه، حتى جعلت جسمه مترهلا، وإهابه فضفاضا، وعندما تنصرف عنه تلقي عليه مزيدا من الماء الطهور !! وقد تكررت زياراتها وتتابعت، وفي الأمسية تلو الأمسية، وهو في كل مرة ينتظرها في لهفة وترقب، ويتمنى ألا تجيء لسوء صنيعها به، وضرر نزولها عليه، ولكن وعدها يصدق، وعادتها لا تتخلف، وما أفدح صدق الوعد إذا نتج عنه الضرر المحقق، والخطر الوبيل !!

هكذا رسم أبو الطيب الصورة الظاهرة للزائرة، فإذا أردنا أن نعبر عن مقاصد تصويره ودلالاته وجدناه يرمي إلى الآتي : إن نوبات الحمى لا تأتي عادة إلا ليلا، وقد عاوته مرارا وتكراراً، ومن العادة أن نوباتها يصحبها ارتعاش وقشعريرة، وإحساس بالبرودة، فلا غرو أن يهيء المصاب بها ما يلزم لمقاومة تلك النوبات من أغطية وأكسية وقد خيَّل لنا الشاعر أنه أعدَّ لها تلك الفرش لتنعم بالراحة وتسعد بالضيافة، ولكن الزائرة العجيبة تأبى أن تقنع بما أعده لها بل تصر على أن تنزل في صميم الجسم وعمق العظم، ولما كانت نوبات الحمى وتأثيراتها تتمثل في الهزال، والنحول خيَّل لنا أبو الطيب أن سبب ذلك النحول وترهل الجلد هو تسلل الحمى بين الجلد وما تحته وتوسيعها له بألوان الأسقام والأدواء !! ثم يخيِّل لنا في نهاية الصورة ما تنتهي به نوباتها من عرق شديد يتصبب من المحموم بأن الزائرة الغريبة هذه آثرت أن تُطَهِّرَ مَنْ زارته بعد ما كان من لقائهما وكأنهما كانا عاكفين على إثم وجرم يستوجب التطهُّر منه !!

ثم يفكُّ أبو الطيب اللُّغْز ويفسر الأُحجِيَّة عندما يخاطب تلك الزائرة بنعتها الحقيقي وهو " بنت الدهر " أو النازلة الملمة، والمصيبة التي رُزِيء بها فنعرف أنها الحمَّى، ونتأكد أنها زائرة مرغوبٌ عنها، يُرثَى لمن نزلت به، ويُواسَى من حلَّت بساحته.

إنه الآن يخاطبها بنعتها الحقيقي قائلا لها في نغمة حزينة ضارعة : أيتها النازلة الملمة. إن عندي من النوازل والرزايا ما لا يُحصَى عددا، وقد أحاطت بي الكوارث، والتَفَّتْ من حولي المصائب حتى لم تدع موضعا ينفذ منه بلاء جديد!! وإنني لأتعجب

كيف تسنى لك أن تخترقي نحوي هذا الطوق من المصائب ؟ وكيف فقدت المروءة، وطاوعتك نفسك أن تجرحي مصابا لم يعد فيه موضع لجرح جديد !!.

ثم تعاوده أحلامه القديمة فيتساءل هل تعود كرَّة تلك الأيام الممتعة الحافلة مرَّةً أخرى ؟! وهل يعود إلى سابق عهده يمتطي صهوة الخيل، ويمسك بزمام الرواحل، ويسعد بتلك المغامرات التي كان يشارك فيها، إنه يأمل أن تكون مثل تلك المشاركات سبيلا إلى الراحة النفسية والإحساس بالرضا عن الذات ؛ لأن هذه الأعمال على ما يكتنفها من خطر كانت تجد هوى في نفسه، وصدى طيبا في وجدانه، وتُشعِره بالمعنى الحقيقي للحياة !!.

وفي ختام تلك القصيدة الرائعة يُعَرِّج بنا أبو الطيب لندلف معه إلى مجلس حكمته، وملتقى مريدي فلسفته، فيدير حوارا مع الطبيب الذي جيء به ليَطِبَّ له من الحمى، ويلتمس له الدواء، بعد أن يفحص أسباب الداء، بيد أن الشاعر المحموم يطلعنا على أنه أخْبَرُ بعلته، وأبْصَرُ بدائه من الطبيب الذي أُوكِل إليه ذلك الأمر، ويعقد شاعرنا حواراً طريفا مع ذلك الطبيب، يمكن أن نستعرضه على النمط التالي :

الطبيب : لقد تناولتَ طعاماً ما أو احتسيت شرابا ما فكانت تلك

□□الحمَّى ! فخبِّرْني ماذا أكلت وماذا شربت ؟!

الشاعر : عجباً ! أيها الطبيب لم آكل شيئاً يسبب لآكله الحمَّى،

ولم أشرب شيئا كذلك !! ولكن دعني أخبرك سبب علتي وخَبَرَ الحُمَّى التي عاودتني، واعذرني لا بل أنا الذي أعذرك فليس فيما درستَ وجرَّبْتَ ما يُطلعك على تلك العلة !! أيها الطبيب : إن علتي تكمن في معاناة روحي، وانقباض نفسي، وتحطم آمالي...، وهذه كلها جعلت جسمي لا يقوى على المقاومة فتمكنت مني الحمى، واعتل الجسم لاعتلال النفس، وتعاطف البدن مع الوجدان ! أيها الطبيب ائذن لي أن أوضح لك أكثر وأفيض وأسوقَ الأمثلة ! إن حالي كحال الجواد الأصيل الذي عوَّده فارسه المراس والمران، وشارك به دوماً في المنازلات وأقحمه الأخطار، وعلَّمه الكرَّ والفرَّ ثم فجأة ودون مقدمات حُرِم من ذلك كله، وأُبعِدَ عما أَلِفَ، وأُهمل لا يدرَّب ولا يمرن ولا يشارك في منافسات، ولا يدخل في مواجهات، وقُيِّد محبوساً، لا يتريض ولا يتمتع، ألا يعْتَلُّ ذلك

الفرس ؟! ألا تصاب قواه بالعطب ؟! ألا يشكو، ويضطرب كيانه ؟! هكذا أنا مثله أصابني من الإهمال ما أصابه، وعانيت القيد مثلما عانى!!

أفهمت سيدي الطبيب علتي ؟ وأقنعك " تشخيصي " ؟!.

□□□□□ثم ينهي أبو الطيب قصة مقامه بمصر وما اكتنفها من عناء كعهدنا به مُبْدِياً تحمله للشدائد، مؤكداً أن جسمه وإن اعترته علة فإن إرادته على صحتها وقوتها، وصبره على الشدائد لا يني ولا يكل، وهو إن سلم من السُّقم العارض فلن يسلم إلى ما لا نهاية، بل إنه على يقين من أن كل حيٍّ سيودِّع الدنيا إن عاجلا أو آجلا، ولكنه ما بقي فيه رمق ثابتٌ على مبادئه، مستمسكٌ بصرامته وقوة جَلَدِهِ، معتصم بما درج عليه من إباء، باق على ما عرف عنه من رفيع الشيم وكريم الخصال.

ملومُكما يَجِلُّ عن الملامِ ووقْعُ فعاله فوق الكَلامِ

ذَرانِي والفَلاةَ بلا دليلٍ ووجهيَ والهجيرَ بلا لثامِ
فإنِّي أَستريحُ بذا وهذا وأتعَبُ بالإناخَةِ والمُقامِ
عيونُ رواحلي إنْ حِرتُ عيْنِي
وكُلُّ بُغام رازحةٍ بُغامي (٤٤)
فقد أردُ المياهَ بغير هادٍ سوى عدِّي لها برقَ الغَمام
يُذِمُّ لمهجتي ربِّي وسيفي إذا احتاج الوحيد إلى الذِّمام
ولا أُمسي لأهل البُخل ضيفاً
وليس قِرَىً سوَى مُخِّ النَّعام
فلمَّا صار وِدُّ الناس خِبًّا جزيتُ على ابتسامٍ بابتسام
وصرتُ أشُكُّ فيمن أصطفيه لعلمي أنَّه بعضُ الأنام
يُحِبُّ العاقلون على التصافي وحُبُّ الجاهلين على الوَسام
وآنَفُ من أخي لأبي وأُمِّي إذا ما لمْ أجدْه من الكِرام
أرى الأجدادَ تغلبها جميعاً على الأولاد أخلاقُ اللئام
ولستُ بقانعٍ من كلِّ فضلٍ بأن أُعْزَى إلى جَدٍّ هُمام
عَجِبْتُ لمَنْ له قدٌّ وحدٌّ وينْبو نبوة القَضِم الكهامِ (٤٥)
ومَنْ يجد الطريقَ إلى المعالي
فلا يذَرِ المَطِيَّ بلا سَنام
ولم أَرَ في عُيوب الناس شيئاً
كنَقْصِ القادِرِينَ على التَّمام

ثم وصل أبو الطيب إلى غرضه الرئيس من القصيدة فقال :

أقمْتُ بأرض مصرَ فلا ورائِي
تخُبُّ بِيَ المطِيُّ ولا أمامي
وملَّنِيَ الفِراشُ وكان جنبي يَمَلُّ لقاءَهُ في كل عام

وأكتفي من نص القصيدة بما أوردت هنا، فليرجع إليها كاملة من أراد.

بمَ التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأْس ولا سكن (٤٦)

وهو مطلع قصيدة عتاب وفخر قالها أبو الطيب عندما بلغه أن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة، وتعد مقدمتها قطعة من الفن الرفيع، أبدعها المتنبي من ذوب فؤاده، وعُصارة فكره، فجاءت على الرغم مما فيها من مسحة الشكوى والألم – نشيد اعتزاز وثقة بالذات، وصلابة في مواجهة الشدائد، وعصارة خبرة بالحياة واعتبار بأحداثها، ودراية بأحوالها ؛ إذ سرورها لا يدوم والبكاء على الفائت من متاعها عبث لا يليق بأولى الهمم والعزائم، وما أدخل الضيم على أرباب الولوع بمتاع الحياة وزخارفها إلا جهلهم بحقائقها واغترارهم بأحابيلها وأشراكها، فيسكبون الدموع على ما يفوتهم منها ظنا منهم أن فيه سعادتهم وسرورهم، وقد يكون في عاقبة الأمر شرا تخلصوا منه، ومكروها رحل عنهم...، والافتتاحية بهذه الأفكار التي بثها أبو الطيب في ثناياها أبلغ تمهيد، وأعظم توطئة لما ضمنه القصيدة بعد من عتاب لسيف الدولة، وهذه هي الافتتاحية بأكملها :

بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سررت به ولا يردُّ عليك الفائت الحزن
مما أضرَّ بأهل العشق أنهم هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم في إثر كل قبيح وجهه حسن
تحملوا حملتكم كل ناجية فكل بين عليَّ اليوم مؤتمن
ما في هواكم من مهجتي عوض
إن مِتُّ شوقاً ولا فيها لها ثمن

يا من نعيت على بعدٍ بمجلسه

كل بما زعم الناعون مرتهن

.... **إلخ**

مقدمات الإغراب والإلغاز:

ويبدو من سياقات هذه المقدمات أن أبا الطيب أتى بها على هذا النحو لأسباب متعددة، منها : أن نزعة التأمل التي كانت طابع الاتجاه الذهني لديه اقتضته تعمقا في المعنى، واستشفافا للحقيقة الكامنة وراء الظواهر، فكان ذلك يقوده في بعض الأحيان إلى الإغراب، وكزازة العبارة ؛ إذ الفكرة ذاتها تتسم بشيء من الخفاء، ولا تكون واضحة جلية. وقد يكون سبب الغرابة في المطلع ناتجا عن رغبة شاعرنا في التباصر بالغريب النادر، أو التعمية على بعض مناوئيه، وشغلهم بالنادر غير المألوف الذي يعتاص عليهم، فيعتصرون عقولهم في تأويله، ومحاولة الاهتداء إلى كنه معناه، وربما كان ذلك مقصوداً من المتنبي، ومما يؤيده قوله :

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جرَّاها ويختصم

ومن أمثلة المطالع والافتتاحيات التي تدخل في ذلك النمط ما يلي :

عذيري من عذارى من أمور

سكنَّ جوانحي بدل القصور (٤٧)

□□□□وهو مطلع إحدى قصائده القصار ذكر شراح الديوان أنه قالها يصف مسيره في البوادي، ويهجو رجلا اسمه " ابن كروَّس "، وهي في تصنيفنا من شعر الفخر الشخصي الذي يباهي فيه أبو الطيب بمغامراته وركوبه المخاطر والأهوال.

ومعناه : من يلتمس لي العذر في أمر تلك الآمال الكبار التي استولت على قلبي، وأسرت لُبِّي، وسكنت جوانحي، والرغبة من شاعرنا في التجنيس اللفظي والتورية واضحة، وهي التي جلبت على عبارته الغموض، ومعنى عذيري : من يعذرني، أيْ يقبل عذري. والعذارى : الفتيات اللاتي لم يتزوجن وورَّى بهن هنا عن الأمور العظام التي لم

يسبقه أحد إلى الولوع بها أو معاناة أثرها، وقوله سكنَّ جوانحي بدل القصور ترشيح للتورية، وقد استطرد في البيت التالي فأكمل السياق المجازي قائلا :

ومبتسمات هيجاوات عصر عن الأسياف ليس عن الثغور

□□□□□ومن ذلك النمط الذي فيه غموض وإغراب أيضا هذا المطلع :

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زمُّوا لا الجمالا (٤٨)

وهو مطلع قصيدة مدح بها أبو الطيب " بدر بن عمار"، وكان شاعرنا محبا له، معجبا بشخصه. والافتتاحية طريفة فيها مزجٌ بديع بين الغزل المصنوع المتقن الصنعة والشكوى من كثرة الأسفار وابتعاد الأحبة...، وواضح من افتتاحيتها الغزلية رغبة الشاعر في محاكاة الشعراء القدامى في معانيهم وأخيلتهم وتصويرهم، ونستعرضها هنا لنتبين حقيقة ذلك يقول :

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زموا لاالجمالا
تولوا بغتةً فكأن بينا تهيبني ففاجأني اغتيلا
فكان مَسِيرُ عِيسِهُمُ ذميلا وسير الدَّمع إثْرهم انسيالا
كأن العيس كانت فوق جفني مُناخاتٍ فلما ثُرنَ سالا
وحَجَّبت النوى الظبيات عني فساعدتْ البراقع والحجالا
لبسْنَ الوَشْيَ لا مُتجملات ولكن كي يصُنَّ به الجمالا
وضَفَّرن الغدائر لا لحُسن ولكن خفن في الشعر الضلالا
بجسمي من برتْه فلو أصارت
وشاحي ثُقْب لؤلؤة لجالا
ولولا أنني في غير نوم لبِتُّ أظُنُّنِي منِّي خيالا
بدت قمراً ومالت خَوْطَ بانٍ وفاحتْ عنبراً ورنت غزالا
كأن الحزن مشغوفٌ بقلبي فساعةَ هجرها يجد الوصالا

والمطلع كما لمسنا غريب غير واضح الدلالة ؛ لذا انقسم الشراح حول تفسيره، يقول أبو البقاء في معناه : " لما رحلوا إنما ارتحل بقائي فكأن بقائي شاء ارتحالا لا هم شاءوه، وكأنهم زموا صبري للسير لا جمالهم ؛ لأني فقدت الصبر لما ارتحلوا، وإنما نفى الارتحال عنهم لأن ارتحال بقائه أهمُّ وأعظم، فكأنَّ ارتحالهم عند ارتحال بقائه ليس ارتحالا لأنهم ربما عادوا، والبقاء إذا ارتحل لم يعد، ومسير صبره أعظم من مسير

الجِمال، فلم يعتد بسير جمالهم مع سير صبره. وقال ابن القطاع : بقائي شاء أي سبق ارتحالهم، يقال : شاءه وشآه : إذا سبقه، ولولا ذلك لمت أسفاً، وهذا على المبالغة. وقيل معناه : بقائي أراد رحيلهم، فشاء من المشيئة، فليتني متُّ، ولم أره يتأسف إذا لم يمت عند رحيلهم وقيل معناه : بقائي أراد أن يرحل عني وهم لم يشاءوا الرحيل " (٤٩)

ولا ريب أن تراكب العبارة وما فيها من تقديم وتأخير ومعاظلة كانت سببا في اختلاف الشراح في تفسيرها، وإن كنت أميل إلى تفسير أبي البقاء ؛ لاقترابه من روح المتنبي ونفاذه إلى جوهر شعره وطبيعة فنه. ومما يلفت النظر في الافتتاحية بعد ذلك المطلع الغامض المبالغة في التصنع، إذ يزعم الشاعر أن الأحبة قد فارقوه على غير توقع منه، وكأن البين تهيب أن يجاهره بالأمر ففاجأه مغتالا له على حين غرة منه، ثم يبالغ في وصف أثر ذلك البين فيزعم أن مسير إبل الأحبة الراحلين كان وسطا لا إسراع فيه في حين كان مسير دموعه أسفا على فراقهم انسكابا متسارعا !! والأبيات بعدُ مليئة بالتصنع وفيها طرافة وجدة في التصوير مما يؤكد ما لاحظناه من رغبة الشاعر في التأنق وتوليد المعاني، وابتكار الصور التي لم يسبق إليها.

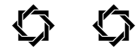

مَلامُ النوى في ظلمها غايةُ الظلم

لعل بها مثل الذي بي من السقم (٥٠)

وهو مطلع إحدى مدحيات أبي الطيب، ويروى : " ملامي النوى.. " يقول : إن لوم النوى في إحداث الفراق بيننا واتهامها بالظلم هو ظلم في واقع الأمر ؛ فقد تكون النوى عاشقة لها مثلي، وقد ألمَّ بها من الشوق والسقم مثل ما أصابني فاستأثرت بالحبيبة وسبقتني للظفر بها.. فكيف تُلام ؟ ولِمَ تُظْلَم ويستنكر صنيعها ؟! والافتتاحية بعد هذا المطلع فيها أيضا غزل مصطنع، ينم عن رغبة في الإغراب والطرافة وتوليد المعاني.

ولنتأمل صنيع شاعرنا فيها لتتضح لنا تلك الظاهرة يقول :

ملام النوى في ظلمها غاية الظلم

لعل بها مثل الذي بي من السقم

فلو لم تَغَرْ لم تزو عني لقاءكم

ولو لم تُرِدْكم لم تكن فيكم خصمي

أمنعمة بالعودة الظبية التي
بغير ولي كان نائلها الوسمي
ترشفت فاها سحرة فكأنني
ترشَّفت حرَّ الوجد من بارد الظلم
فتاةٌ تساوى عقدها وكلامها
ومبسمها الدرّيّ في الحُسن والنَّظم
ونكهتها والمندلي وقرقف
معتقة صهباء في الريح والطعم
جفتني كأني لست أنطق قومها
وأطعنهم والشهب في صورة الدُّهم(٥١)

فهو يؤكد بعد المطلع ما طواه في عباراته، إذ يستدل من إبعاد النوى حبيبته أنها فعلت ذلك غيرة منه، فهي تنافسه في حبها وتنصب نفسها خصما له، ثم يتساءل في عبارة رقيقة أتعود تلك الحسناء فتنعم بالوصال بعد البعاد، وتتواصل غيوثها بعد أن هطلت مرة واحدة ثم انقطع ما كنت أتوقعه من فيوضها، لقد ذاق شاعرنا شيئا من حسنها فزاده بها تعلقها، وكأنه اقتبس ما زاده شوقا وأُواما، ثم وصف تكامل حسنها واتساق خَلْقِها، عِقْداً وثغراً وحديثاً وشذاً عطراً... ثم أنهى افتتاحيته بذكر جفائها، وتخلص منه إلى الفخر في براعة واقتدار.

أحقٌ عافٍ بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القِدم (٥٢)

وهو مطلع إحدى مدحيات أبي الطيب، ويعدُّ مدخلا وتمهيداً للقصيدة، ومتوائماً مع ما بثه شاعرنا فيها من الأفكار، وما شكا منه من أحوال أهل زمانه، وسوء ما هم عليه من طباع وأخلاق، والافتتاحية تسير على النسق التالي :

أحق عاف بدمعك الهمم أحدث شيء عهدا بها القدم
وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عُهودٌ لهم ولا ذمم
في كل أرض وطئتها أمم تُرعَى بعبدٍ كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلبسه وكان يُبرى بظفره القلم

□□□□□ويتضح من سياق الافتتاحية مقدار تجديد أبي الطيب لمعاني شعره وابتكاراته في تلك الافتتاحيات التي أثراها بأفكار لم يُسْبق إليها، ومعانٍ وبدائه لا نظير لها في شعر غيره ؛ إذ يقرر أنه لا يشغل نفسه ببكاء الأطلال التي اندثرت بقدر ما يعنى ببكاء الهمم التي درست والعزائم التي غاضت، وأهل المروءة الذين غدوا أثراً بعد عين !! ويربط شاعرنا ذلك الواقع المؤلم بتسلط فئة من الأعاجم على مقاليد الأمور، وتحكمهم في مصائر العرب الخلص أرباب الهمم والعزائم والمُثُل والمكرمات، وإذا كان الملوك المحكَّمون ذووا القول النافذ والأمر المطاع بهذه الوضاعة فكيف ينتظر أن يكون في سواد الناس مروءة أو صيانة لمكارم الأخلاق ؟! ولو أن هؤلاء الأعاجم كانوا من ذوي البيوتات لهان الخطب وخف المصاب، ولكنهم في الأصل عبيد مسترقون، مرنوا في خدمة ساداتهم، وكانت حياتهم خشنة قاسية فصاروا ذوى ترف وتنعم ففسد حالهم، وعاثوا في الأرض فسادا !!

أنا لائمي إن كنت وقت اللوائم

علمت بما بي بين تلك المعالم (٥٣)

□□□□وهو مطلع قصيدة مدحية، وفيه غرابة ناشئة من رغبة الشاعر في الإتيان بمعنى فيه مبالغة وابتكار، إذ يصور الحيرة والتدله عند رؤية بقايا ديار الأحبة فيقول أنه أولى باللوم من غيره لو أنه أدرك شيئا مما حوله عندما وقف بين معالم تلك الديار !! والافتتاحية تصنع كلها وتدل دلالة واضحة على رغبة الشاعر في توليد المعاني، والتأنق في صوغها على غير مثال سبق.

وهكذا نرى أن أبا الطيب حلق بنا في عالم مليء بالنوادر، حافل بألوان البراعة وأفانين التجديد والإطراف، بألوان من التنويعات والتوليدات على ما سبق إليه الشعراء، وتفننوا فيه، مما يؤكد أن جانباً واحداً من جوانب إبداع أبي الطيب قادنا إلى هذا الفيض من البراعة وحسن التأتي، وأعطانا دليلا لا يقبل النقض على أن شعر أبي الطيب وإبداعاته ليست مما يتأتى فهمه عفو الخاطر، بل تتطلب تفرسا وتأملا، وهي نتاج عبقرية حاذقة، عاشت للشعر، وحشدت قدراتها لذلك الفن العجيب، فاستحق به شاعرنا تلك المكانة، وبلغ به في سجل الخالدين أسمى موضع وأرفع منزلة.

المصادر والمراجع والهوامش :

١) الشعر والشعراء ت أحمد محمد شاكر ط الثالثة ١٩٧٧م.
٢) المرجع / ٨٢.
٣) وله ثلاثة كتب هي : مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول.
□في كتابه : النقد الأدبي الحديث.
العكبري ١٩/٢.، والبرقوقي ١١٩/٢.
بَيْنَنا : فراقنا وبعادنا.
الشفوف : الثياب الرقيقة. تربُّه : تجعله ناعماً مستريحاً.
التهجير : السَّيْر في حرِّ الظهيرة. والمهمه : الصحراء الواسعة. والرُّبدُ : النعام التي خالط سوادها بياض.
العكبري ٤١/٢.، والبرقوقي ١٤٢/٢.
□تجوب : تقطع. الوجناء : الناقة العظيمة الوجنات. والحرف : الناقة الضامرة.
والجرداء : الفرس القصير الشعر. والقيدود : الطويلة.
الأماليد : الناعمات.
١٢) أروح : أكثر راحة. مُثْرٍ، من الثراء.
١٣) العكبري ١٠/٣، والبرقوقي ١٤٢/٣.
١٤) العكبري ١٠٩/٤. والبرقوقي ٢٣٥/٤.
١٥) ذباب السيف : حده. والغشم : الظلم، يريد : إن لم أقدر على أن أجمع بين النصيب الموفور من الحياة الكريمة، والفهم – فسأطلب النصرة بحد السيف، وأقهر به من يحول بيني وبين بلوغ ما أريد.
١٦) المعنى : ها أنذا كما وصفت يا دنيا ! فابتعدي عني وترقبي عداوتي. ويا نفس ليكن منك حرص على عداء الدنيا، وإصرار على فعل ما تكرهه وتغضب منه !.
١٧) العكبري ٢٠٩/٤. والبرقوقي ٣٤١/٤.
١٨) المعنى : حولي من الناس طوائف لا يستحقون نعت الإنسان العاقل، بل يخطيء من يسأل عنهم بمن التي يسأل بها عن العقلاء، والأحري أن يسأل عنهم السائل بما التي لغيرالعاقل !!.
١٩) أقتري : أي أنزل وأجوب بلدا بعد بلد. مضطغن : حاقد.
٢٠) أَنِي : أي أفتر وأترك لومهم وأعود باللوم على نفسي لتيقني من جهالتهم.

(٢١) □□خُرَّاب : جمع خارب وهو الذي يسرق الإبل خاصة. غرثى : جمع غرثان وهو الجائع. مكن الضباب : بيضها.

(٢٢) خلَّة : مصادقة. يريد : وقد أظهر مصادقة لهؤلاء الصعاليك، وأتغابى لديهم حتى يحسبوني واحداً منهم، ولا يرتابوا في أمري.

٢٣) العكبري ٢٤١/٤. والبرقوقي ٣٧٢/٤.

٢٤) العكبري ٢٨١/٤. والبرقوقي ٤١٧/٤.

٢٥) المعنى : تمنيت الموت لمَّا طلبت صديقاً وفيا موافقاً أو عدوًّا ساتراً للعداوة فأعياك □□□□□□ذلك.

٢٦) العكبري ٩٣/٤، والبرقوقي ٢١٦/٤.

٢٧) العكبري ٢٩٠/٣. والبرقوقي ٤./٤

٢٨) لَهَنَّكِ : كلمةٌ تفيد التوكيد، وأصلها لأنك فأبدلوا الهمزة هاءً.

٢٩) تجلي : تكشف.

٣٠) العكبري ١٧٧/٣. والبرقوقي ٢٤٩/٣.

٣١) الودق : المطر. والمخايل : البروق وما يستدلُّ به على المطر. والخُلف : إخلاف الوعد. المعنى : يقول لصاحبيه المتخيلين : انتظرا قليلا فستريا من أمري شأناً عظيماً ؛ فقد ظهرت بداياته وأماراته، ولن أُخلفكما الوعد !!.

٣٢) قلقل : حرَّك. والحشا : ما بداخل الجوف. قلاقل العيس : النُوق الخفيفة سراع الحركة والمعنى : لقد حركتُ بسبب الهموم التي اضطربت لها نفسي الإبل السريعة، والبيت مثال على تنافر الحروف وثقل التركيب.

٣٣) غثَّ الشيء : هزل، والمقصود هنا : سوء العيش وهوانه.

٣٤) العكبري ١٤٨/٢. والبرقوقي ٢٥٤/٢.

٣٥) الأتِيُّ : السيل الذي لا يردُّه شيء.

٣٦) الهبوات : الغبرات العظيمة، أي الغبار الذي تثيره المعارك. والمجر : الجيش العظيم.

٣٧) العكبري ٤/ ٦٩، والبرقوقي ١٩٠/٤.

٣٨) لأبي الطيب تعبيرات من وحي إحساسه بالمفارقات في الحياة، وهو إحساس يقوده أحيانا إلى الجرأة وتجاوز الحد في التعبير، وكان عليه هنا أن يراعي أن العمر على التحقيق منحة من الله عز وجل، ولمَّا كان في هذا السياق يريد أن يبالغ في أنه لم يستفد من عمره شيئا غلا وجاوز الحد وأساء التعبير.

٣٩) معدن : موضع الإقامة. الرَّغام : التراب.

٤٠) يخر : يسقط. الثمام : نبتٌ ضعيف.

٤١) المعنى : يريد أن يقول إن الإنسان إذا كان شبابه يضيع في غفلة ولهو، وشيبه في همٍّ وحسرة – فلم يبق من عمره شيء، وكأن حياته ذهبت باطلا !!.

٤٢) المعنى : هلاَّ كان أهل الأرض قليلون عمَّا هم عليه، وكان الكرماء منهم أكثر مما يوجد في الواقع ؟!.

٤٣) العكبري ١٤٤/٤. والبرقوقي ٤/ ٢٧٤.

٤٤) حِرْتُ : تحيَّرتُ. البغام : صوت الناقة للتعب، وهو صوت لا يفصح. الرازح من الإبل : الهالك هزالا.

٤٥) القضم : السيف المثلَّم. الكهام : الذي لا يقطع. ينبو، يقال نبا السيف عن الضريبة : لم يصبها.

٤٦) العكبري ٢٣٤/٤. والبرقوقي ٣٦٤/٤. والتعلل التشاغل بالشيء. والنديم: الصاحب.

٤٧) العكبري ١٤١/٢.

٤٨) المرجع ٢٢١/٣.

٤٩) المرجع والصفحة.

٥٠) العكبري ٤/ ٤٧. والبرقوقي ٤/ ١٦٥.

٥١) الشهب، من الخيل : التي يخالطها في ألوانها بياض.والدهم : السود، يقصد أنها تغيرت ألوانها من الدماء والعجاج.

٥٢) العكبري ٤/ ٥٨. والبرقوقي ٤/ ١٧٩.

٥٣) العكبري ١١٠/٤. والبرقوقي ٢٣٦/٤.